

لسانيات المنطوق في الدرس التّحوي عند سيبويه

د. يسري صبحي الصّاوي
قسم النحو والصرف والعرض -
كلية دار العلوم - جامعة القاهرة،
وكلية الآداب-جامعة قطر

يمثّل سيبويه علامًّا فارقة في تاريخ الدراسات التّحوية؛ إذ لا نعرف قبل كتابه عملاً ناضجاً بهذه الصورة التي وصل إليها بها، من حيث اكمال التّحوي، واستواوه علمًا له مصطلحاته وقضاياها. فهو «السّفر العظيم الذي أقامه العالم الجليل في ساحة الخلود أثراً، وأرسله مع الأيام ذكرًا، وادخره للعربية كنزاً، وندبه في العالمين شاهداً على براعته فيها، ونفذه إلى أسرارها»¹.

ولم يبالغ الأستاذ علي النّجدي ناصف - رحمه الله - حين قرر أن سيبويه صَنَع «لِلنّحو ما لم يصنع أحد، حتى ليعد بحق أستاذة الأشهر، وإمامه المقدم، ويعد كتابه فيه معيار العربية، وكُنزاً من كنوزها الراخمة بها اشتَرَع لها، وجمع من ذخائِرها»². ويؤكِّد أحدُ الباحثين المعاصرِين «أنه لو استطاع العرب فهم كتاب سيبويه فَهُم رواية ودرایة وعمق، لنبشوا حقيقة نَحْوِية من هذا الكتاب لا تقلّ أهميتها عن الحقائق التّحوية التي أتى بها عالم اللسانيات الأمريكي نوم تشومسكي»³. ولا تكاد الدراسات التي قامت حول كتاب سيبويه تُحصى

1 - سيبويه إمام النّحاة: علي النّجدي ناصف، ص 128.

2 - السابق، ص 6.

3 - دراسات لسانية تطبيقية: د. مازن الوعر، ص 29.

كثرة قدّيماً وحديثاً، إقراراً بمنزلة الكتاب وصاحبـه، وتقديراً لـذلك الجهد العظيم الذي قـل أن نجد له نظيرـاً أو شبيهـاً.⁴

والمتأمـل لـكتاب سيبويه يـدرك أنه جاء نتاجـاً طبيعـياً لـمتضـيـات البيـئة التي ظـهرـ فيها، وهي بيـئة قائـمة على الشـفـاهـية والتـلـقـيـ المـباـشرـ، إذ لم يكن شـائـعاً في تلك البيـئة الكـتابـة المنـظـمة والتـداـول المـعـرـوفـ للمـدـونـاتـ، فالـشـعرـ العـربـي قبلـ الإـسـلاـم يـتـنـقلـ بالـرـواـيـة الشـفـاهـية لاـ الكـتابـة؛ لـذـلك أـصـبـحـ أدـبـ هذهـ الـأـمـةـ «ـأـدـبـ مـشـافـهـةـ لـاـ كـتابـةـ»⁵، وـكانـتـ الرـواـيـةـ وـالـمـشـافـهـةـ فيـ تـلـكـ الـبـيـئةـ «ـمـرـجـعـهـمـ فيـ أـخـبـارـهـمـ وـأـنـسـابـهـمـ وـأـثـارـهـمـ الـأـدـبـيـةـ»⁶. ولاـ شـاكـ فيـ أـنـ الـأـصـلـ هوـ الـكـلامـ الـمـنـطـوقـ أـمـاـ الـكـتابـةـ فـهـيـ فـرعـ عـلـيـهـ⁷، وـقدـ حـاوـلـتـ الـكـتابـةـ أـنـ «ـتـسـعـيـضـ عـنـ التـسـغـيـمـ بـالـتـرـقـيمـ، وـلـكـنـاـ لـنـ تـعـوـضـ النـبـرـ بـوـسـيـلـةـ أـخـرـىـ، وـلـمـ يـحـاـولـ الـكـاتـبـوـنـ ذـلـكـ، هـذـاـ كـانـتـ درـاسـةـ الـكـلامـ الـمـنـطـوقـ الـمـسـمـوعـ مـقـدـمـةـ لـابـدـ مـنـهاـ لـدـرـاسـةـ الـأـنـظـمـةـ (ـالـقـوـاعـدـ)ـ الـلـغـوـيـةـ،ـ أـوـ بـعـارـةـ أـخـرـىـ لـدـرـاسـةـ الـلـغـةـ نـفـسـهـاـ»⁸.

ويـرىـ أـولـمانـ أـنـ «ـتـفـوـقـ الـكـلمـةـ الـمـنـطـوقـةـ عـلـىـ الـكـلمـةـ الـمـكـتـوبـةـ أـمـرـ مـسـلـمـ بـهـ،ـ بـحـيـثـ لـاـ يـنـبـغـيـ بـحـالـ مـنـ الـأـحـوـالـ أـنـ يـقـلـلـ مـنـ شـأنـهـ ذـلـكـ الدـورـ الـذـيـ تـلـعـبـهـ الـطـبـاعـةـ فيـ عـالـمـنـاـ الـحـدـيـثـ»⁹،ـ كـمـاـ يـؤـكـدـ أـنـ طـرـحـ الـجـانـبـ الصـوـتـيـ وـإـقـصـاءـهـ يـؤـدـيـ بـنـاـ إـلـىـ كـثـيرـ مـنـ الصـعـوبـاتـ وـالـتعـقـيدـاتـ¹⁰.

4 - انظر بعضاً من هذه الدراسات في مقدمة الأستاذ عبد السلام هارون لكتاب سيبويه، ص 36 وما بعدها.

5 - ظاهر التخفيف في النحو العربي: د. أحمد عفيفي، ص 138.

6 - القواعد النحوية، مادتها وطريقتها: عبد الحميد حسن، ص 208.

7 - انظر: اللغة العربية معناها وبناؤها، ص 46.

8 - السابق: ص 47. وجدير بالذكر أن بعض الكتب بحاول التعبير عن النبر عن طريق تغيير لون المداد أو درجته، لكن تبقى تلك المحاولة في النهاية قاصرة عن التعبير إذا ما قيست بامكانيات الكلام الحي المشافه.

9 - دور الكلمة في اللغة: ستيفن أولمان، ترجمة: د. كمال بشـرـ، ص 28. وقد تحدث أولمان عن اللغة المنطقـةـ والمـكـتـوبـةـ فيـ الفـصـلـ الثـالـثـ مـنـ كـاتـبـهـ السـابـقـ تـحـتـ عـنـوانـ «ـصـورـتـاـ الـلـغـةـ»ـ مـنـ صـ28ـ حـتـىـ صـ37ـ.

10 - انظر: السابق ص 32.

والملاحظُ أنَّ كلَّ العُلُومِ في البيئةِ العربيَّةِ قدِيًّا كانت قائمةً على النُّطق والمشافهة، فاما النَّحوُ - كما سُبُّين - فقد قَامَ على المشافهة أو الاتصال المباشر «نتيجة لطبيعة الحياة العربيَّة، ولطبيعة الحركة العلمية التي نشأت في مناخ عَامَ أساسه النَّقل والرواية»¹¹. ويقرُّ الدكتور عبدُ الرَّاجحي بكلٍّ وُضُوحٍ أنَّ نُحَّاةَ العَرَبَ «درُسُوا اللُّغَةَ باعتبارها لُغَةً «منطقَةً»، وليس باعتبارها لُغَةً «مكتوبَةً»، وهو أساسَ الدُّرْسِ اللُّغُويِّ الصَّحِيحِ»¹². كما يؤكِّد المستشرق يوهان فَكَ أنَّ من الحقائق الثابتة أنَّ النَّحويَّين «كانوا - حتى القرن الرابع الهجري والعَاشر الميلادي على الأقل - يختلفون إلى عرب الْبَادِيَّةِ ليدرسوا لغتهم»¹³، كما يُصرّحُ في موضع آخر بقوله: «كانت لهجات البدو حتَّى أواسط القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي - هي النَّبعُ القراءُ الخالدُ الذي يستقي منه النَّحَاةُ وعلماءُ اللغة معارفَهم عن العربية الفصحيَّة»¹⁴. ولاشكُّ أنَّ أواسطَ القرن الثالث الهجري، أو القرن الرابع يمثلُ فترةً متَّأخرةً، حيثُ كان بناءُ النَّحو قد اكتملَ، ومع ذلك كان الغالبُ على النَّحَاةَ - كما يقرُّ فَكَ - هو مشافهةُ الأَعْرَابِ والرَّحْلةُ إلى الْبَادِيَّةِ.

أما بقية العُلُومِ العربيَّةِ الأخرى فالإجماعُ مُنعقدٌ بين العلماءِ - قدِيًّا وحدِيثًا - على أنَّ علمَ الْعَروضَ هو علمُ المُنْطَوِقِ لَا المُكْتَوِبِ، يقولُ الخطيبُ التبريزِيُّ: «تقطيعُ الشِّعرِ على الْلَّفْظِ دونِ الْخُطْ، فِيهَا وَجَدَ فِي الْلَّفْظِ اعْتِدَّ بِهِ فِي التَّقْطِيعِ، وَمَا لَمْ يَوْجُدْ فِي الْلَّفْظِ لَمْ يُعْتِدْ بِهِ فِي التَّقْطِيعِ»¹⁵، ويؤكِّدُ الجوهرِيُّ ذلكَ بقولِه: «وَأَمَّا التَّقْطِيعُ فِي رَاعِيِّ فِيهِ الْلَّفْظِ دونِ الْخُطِّ»¹⁶، فالمُعْتَبِرُ فِي وزنِ الشِّعْرِ هُوَ المُسْمُوُّ

11 - النَّحوُ العربيُّ والدُّرْسُ الْحَدِيثُ، بحثُ في المنهج: د. عبدُ الرَّاجحي، ص 55.

12 - فقهُ اللغةِ في الكتبِ العربيَّةِ، ص 180، وانظر: دراساتُ في علمِ اللغةِ: د. كمالُ بَشَر، ص 62.

13 - العربية، دراساتُ في اللغةِ واللهجاتِ والأَساليبِ: يوهانُ فَكَ، ترجمَةُ د. رمضانُ عبدُ التَّوابِ، ص 15.

14 - السابق: ص 160، وانظر: ص 167.

15 - الكافيُّ في الْعَروضِ وَالْقَوْافِيِّ، ص 19.

16 - عروضُ الورقةِ، ص 12.

المفهوم؛ لأن الأذن «هي سبيل الموسيقا إلى النفس؛ لذلك ينبغي أن نهتم في الشعر بالأصوات المنطقية فقط، ويجب ألا تخدعنا الرموز الكتابية»¹⁷.

ومن العلوم القائمة على المشافهة وكيفيات الأداء المختلفة – علم التجويد، وهو «الإتيان بالقراءة مجوّدة الألفاظ، برئبة من الرداءة في النطق»¹⁸ وهو كذلك «حلية التلاوة، وزينة القراءة، وهو إعطاء الحروف حقوقها وترتيبها مراتبها، ورد الحرف إلى مخرجه وأصله، وإلحاقه بنظيره، وتصحيح لفظه، وتلطيف النطق به على حال صيغته وكمال هيئته، من غير إسراف ولا تعسف ولا إفراط ولا تكلف»¹⁹، فالتجويد يعني بدراسة مخارج الحروف وصفاتها، وما ينشأ لها من أحكام عند تركيبها في الكلام المنطق²⁰، كما يهتم علم التجويد بما يسمى «اللحن الخفي» وهو الخطأ في كيفية الأداء و«لا تعرف كيفية، ولا تدرك حقيقته إلا بالمشافهة، وبالأخذ من أفواه أولى الضبط والدرائية»²¹. وما زال علم التجويد حتى يومنا هذا لا يؤخذ إلا بالتلقى والمشافهة.

كذلك «القراءات القرآنية»، التي تعتمد على الأخذ المباشر من الشيخ، ومن شروط صحة القراءة صحة السند المتصل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم²²، كما كان الاعتماد في نقل القرآن الكريم «على حفظ القلوب والصدور لا على حفظ المصاحف والكتب»²³، وبين ابن الجزري (ت 833هـ) أن تلقى القرآن مشافهة

17 - البناء العروضي للقصيدة العربية: د. محمد حماسة عبد اللطيف، ص 17.

18 - النشر في القراءات العشر: ابن الجزري، ج 1 ص 210.

19 - السابق نفس الجزء والصفحة.

20 - الدراسات الصوتية عند علماء التجويد: د. غانم قدوري، ص 13. وانظر: التجويد والأصوات: د. إبراهيم نجا، ص 106.

21 - الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، ص 56.

22 - انظر: النشر في القراءات العشر، ج 1 ص 9.

23 - السابق: ج 1 ص 26، وانظر: ص 9، وص 11.

وحفظه في الصدور يُعدُّ «أشرف خصيصة من الله تعالى لهذه الأمة ... وذلك بخلاف أهل الكتاب الذين لا يحفظونه لا في الكتب ولا يقرءونه كله إلا نظراً لا عن ظهر قلب»²⁴. ويؤكد تلك الحقيقة الشيخ أبو زهرة - رحمه الله - بقوله: «السلف الصالح والخلف من بعدهم ما كانوا يعتمدون على المكتوب في استحفاظ القرآن الكريم، إنما يقرأ طالب القرآن على مقرئ يقرئه، ولا يعتمد على مكتوب كُتب»²⁵.

وكذلك علم الحديث، كان الاعتماد الأكبر فيه على الذاكرة والحفظ والمشافهة. يقول القاضي عياض راوياً عن أنس بن مالك رضي الله عنه: «كنا قعوداً مع النبي - صلى الله عليه وسلم - فعسى أن تكون ستين رجلاً فيحدثنا الحديث، ثم يريد الحاجة، فنتراجعه بيننا، فنقوم كأنما زرع في قلوبنا»²⁶. وما يدل على اهتمامهم بالتلقى المباشر والمشافهة - حرصهم على بيان طرق التلقى، وقد جعلوا أهم طرق التلقى وأعلاها التلقى المباشر عن الشيخ مشافهة، وهو ما أسموه «السماع». يقول ابن الصلاح عن السماع من لفظ الشيخ: «وهذا القسم أرفع الأقسام عند الجماهير»²⁷. ومن فرط اهتمامهم بالسماع والمشافهة رأيناهم يتتحدثون عن آداب طالب السماع، وما يجب عليه أن يتخلق به²⁸، وبينوا «متى يستحب سماع الطالب، ومتى يصح سماع الصغير»²⁹.

24 - السابق: ج 1 ص 6 (بتصرف بالحذف).

25 - المعجزة الكبرى، القرآن: محمد أبو زهرة، ص 593. وانظر: دروس في كتب النحو: د. عبد الراجحي، ص 54 وما بعدها.

26 - الإمام إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع: القاضي عياض بن موسى، ص 142.

27 - مقدمة ابن الصلاح ومحاسن الاصطلاح: ابن الصلاح (ت 643هـ)، ص 316. وقد أشار ابن الصلاح إلى أن طرق التلقى ثمانية هي:

1- السماع من لفظ الشيخ. 2- القراءة على الشيخ. 3- الإجازة. 4- المناولة. 5- المكاتبة. 6- إعلام الراوي. 7- الوصية بالكتب. 8- الوجادة.

انظر: ص 316 وما بعدها. وقد ذكر القاضي عياض نفس الطرق الثمانية مع اختلاف يسير. انظر: الإمام، ص 68 وما بعدها.

28 - انظر: الإمام، ص 45 وما بعدها.

29 - السابق: ص 62.

وكان العلماء «لا يثرون بعلم من يأخذ عن الصحف، وينسبونه إليها؛ خطأً من شأنه، وتعريضاً بعدم الثقة بعلمه»³⁰، فقد كانت البيئة كلها قائمة على التلقى بالمشافهة، فالللميد يأخذ عن أستاذه، ثم يأخذ تلاميذه عنه، وكانت الحقائق العلمية تنال منهم عناية وتحيصاً، ويرويها بعضهم عن بعض، ولم يكن لتدوينها على هيئة كتاب نصيب كبير»³¹، فالعلماء في تلك العصور - كما يرى أستاذى الدكتور محمد حماسة - «لم يكن من همهم أن يؤلفوا كتاباً، بل كان همهم أن يصنعوا طلاباً»³².

فالبيئة كلها تقوم على السّماع والمشافهة لا التدوين، ومن ثم يبدو غريباً أن تتجه سهام النقد إلى النّحاة العرب - وعلى رأسهم سبويه - تتهمهم بالانطلاق من المكتوب القاصر، وإغفال الجانب المشافه الحي في عملية التعديد النحوى؛ فالدكتور عبد الصبور شاهين يقرر أن النّحاة «صرفتُهم خصائص الكتابة عن كثير مما يشيره الدرس الصوقي والعمليات النطقية المتفاعلة»³³، كما أنه «من النادر أن نجد في كتب النّحاة القديمة من يشير إلى الارتباط بين ظاهرة نحوية وأخرى صوتية، مع أن الكثير من ظواهر النحو لا يمكن تفسيره إلا على أساس صوقي»³⁴. والنّحاة «كانوا يهتمون أساساً بما تلقوا من نصوص الماضي لا بما كانوا ينطقون فعلاً»³⁵، كما أنهم مضوا «مع الوهم يضعون قواعد مازالت تعيش في الكتب والمناهج والأذهان»³⁶.

30 - لغة الشعر، ص 333.

31 - القواعد النحوية، ص 259.

32 - عبقرية الخليل بن أحمد في استنباط العروض، ص 37.

33 - المنهج الصوقي للبنية العربية: رؤية جديدة في الصرف العربي، ص 98.

34 - السابق: ص 9.

35 - السابق: ص 10.

36 - السابق: ص 18.

كذلك يرى سيادته أن الصرفيين العرب «لا يؤسّسون قواعدهم على الأصوات وطبائعها، بل على الكتابة ورموزها، وقد خدعت الكتابة العربية الأجيال منذ سيبويه حتى الآن، فاستمرروا في تَرْدِيد كثيِّرٍ من القواعد الكتابية (الناشئة عن الكتابة) دون أن يُعِرِّوا التفاصيل إلى التحليل الأصواتي»³⁷.

أما الدكتور رمضان عبد التواب، فإنه يتهم النّحاة بأنهم: «وَقَعُوا فِي وَهْمِ الْخُلُطِ بَيْنَ النُّطْقِ وَالْكِتَابَةِ فِي بَعْضِ الْأَحِيَانِ، وَأَسَسُوا قواعدهم عَلَى هَذَا الْوَهْمِ، وَلَمْ يَفْطُنُوا إِلَى الْازْدِوَاجِ فِي وَظِيفَةِ بَعْضِ الرَّمُوزِ الْكِتَابِيَّةِ، وَظَنُّوا الْحَرْكَةَ عَرَضاً لِلْحَرْفِ وَغَفَلُوا عَنِ التَّطَوُّرِ التَّارِيَخِيِّ لِلْخُطِّ الْعَرَبِيِّ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْأَمْوَرِ الَّتِي زَعَزَعَتْ كَثِيرًا مِنْ أَسْسِ الدِّرْسِ الْلُّغُوِيِّ عِنْدَ الْعَرَبِ»³⁸، كما أنهم «غَفَلُوا عَنِ النُّطْقِ فَوَقَعُوا لِذَلِكَ فِي أَوْهَامِ كَثِيرَةٍ فِي قواعدهم وقوانيئهم وأحكامهم الْلُّغُوِيَّةِ»³⁹.

ويرى الدكتور محمد العبد أن النّحاة استخرجو «قواعدهم من مادة اللُّغة المكتوبة، ولم يعتبروا مُعطيات اللُّغات المحكمة إلا قليلاً، من أجل ذلك لا نَكَادُ نَعْرِفُ شَيْئاً عَنِ نَحْوِ الْعَرَبِيَّةِ الْمَنْطَوَقَةِ»⁴⁰، كما يؤكد أنَّا ما زِلْنَا حتَّى الآن نَتَعَلَّمُ «نَحْوَ الْلُّغَةِ الْمَكْتُوبَةِ، وَكَثِيرًا مَا نَجْهَلُ سَيَّاتِ الْلُّغَةِ الْمَنْطَوَقَةِ وَخَصَائِصِهَا الْمَيِّزَةِ؛ لِأَنَّهَا لَمْ تَسْجُلْ فِي مَادَةِ الْلُّغَةِ الْمَكْتُوبَةِ، وَلَمْ يَحْلِلْهَا النّحَاةُ الْقَدِيمَاءُ»⁴¹.

ويرى أحد الباحثين المعاصرین أن «إهمال لُغويي الدرس العربي القديم للغة المنطقية أو قعدهم في شائقات تحليلية، قادتهم إلى عدم الصواب

37 - علم الأصوات: برتيل مالبرج، تعریف ودراسة: د. عبد الصبور شاهین، ص82.

38 - فصول في فقه العربية: د. رمضان عبد التواب، ص.8.

39 - السابق: ص396.

40 - اللغة المكتوبة واللغة المنطقية، ص169.

41 - السابق: ص170، 169.

في التصور والبيان ... وكل ذلك تأتّى من أحکامهم التي اعتمدت المكتوب دون الملفوظ»⁴². كما أن النّحاة جروا وراء سراب خادع حين قعدوا في ضوء المكتوب لا المنطق، مما أدى إلى زيادة التّعقيدات والمشكلات في التحليل اللغوي⁴³.

ويرى باحث آخر أن اللّغويين العرب «لم يوفقا كثيّراً في ربط الصلة بين الصوتيات والصرفيات في العربية، وكأنّها أعوزهم الخيال عن تصور الأصوات بمعزل عن الكتابة فبقوا سجناء الخط المرئي»⁴⁴.

وينبغي لنا أن نتلقى تلك الاتهامات بتأنٍ وحذر شديدين؛ ذلك أنها - من وجهة نظرنا - متأثرة بها كان في الغرب من إيثار للمكتوب على المنطق في إطار ما يعرف بـ«النّحو التقليدي»، وهو مصطلح غربي أوروبي، حيث قام ذلك النحو التقليدي - أساساً - على أفكار أرسطو عن طبيعة اللغة اليونانية كما تمثل في أعمال اليونان والرومان القدماء⁴⁵، وهذا النحو التقليدي في الغرب لم يميز بين اللّغة المنطقية واللّغة المكتوبة «بل إن هذا النحو ركّز اهتمامه على اللغة المكتوبة»⁴⁶، وفي القرون الوسطى وحتى القرن التاسع عشر كانت دراسة اللغة مُنصبة على اللعتين اليونانية واللاتينية «وقد كانت دراسة اللاتينية ذات تأثير واضح على منهج «فقه اللغة» بعد ذلك، لأنّها حددت المنهج باعتباره دراسة للغة (مكتوبة) وليس دراسة لغة (منطقية)»⁴⁷.

42 - هندسة المقاطع الصوتية وموسيقى الشعر العربي: د. عبد القادر عبد الجليل، ص 35 (بتصرف بالحذف).

43 - انظر: التنوعات اللغوية: د. عبد القادر عبد الجليل، ص 144.

44 - التصريف العربي من خلال علم الأصوات الحديث: د. الطيب البكوش، ص 24.

45 - انظر: النحو العربي والدرس الحديث، بحث في المنهج: د. عبد الرحيم، ص 45.

46 - السابق: ص 47.

47 - فقه اللغة في الكتب العربية: د. عبد الرحيم، ص 13.

وقد ظل الانحياز في الغرب للمكتوب هو السّمة الغالبة على الدراسات اللغوية حتى جاء دوسوسر (ت 1913) «فأعيد الحق إلى نصبه، وعادت الأمور إلى سياقها الطبيعي، فقد انتصر سوسر للغة المنطقية وعدّها الأولى بالدراسة».⁴⁸ فتهمة التأثر بالمكتوب هي أصلق ما تكون بالنحو التقليدي الغربي، وأبعد ما تكون عن طبيعة النحو العربي الذي أولى المنطق المشفه عناية فائقة.

ولعل أبلغ رد على تلك التّهم الجائرة هو ما نراه عند سيبويه من اهتمام بالغ بالجانب المشفه المنطوق، وسوف نركز حديثا على محوريين رئيسين، أحدهما: تلقّي سيبويه اللغة عن العرب وعن شيوخه، والآخر: تحليل سيبويه لمختلف الظواهر اللغوية.

أولاً: التلقّي:

أ- تلقّيه اللغة عن العرب:

ليس لدينا ما يشير - مجرد إشارة - إلى أن سيبويه تلقّي اللغة بمختلف مستوياتها عن طريق القراءة في أحد الكتب⁴⁹، بل على العكس من ذلك يزخر كتاب سيبويه بما يؤكد أنه تلقّي اللغة مُشفهة وسِيَّاحاً مباشراً من أفواه العرب الفصحاء، ومن شيوخه الذين تلّمذ لهم.

وأول ما يلفت الانتباه أن سيبويه - رحمه الله - يعبّر عن تلقّيه الشعر، وهو أكثر ما وصل إلينا من لغة العرب، بعبارة "أنشد" الدالة على المشفهة بكل ما تمثله من روافد الأداء الصوتي المشفه، مثل تنوع التنغيم، واختلاف النبر، وطبقة الصوت ودرجهاته، بالإضافة إلى الإشارات الجسمية التي هي

.48 - السابق: ص 104.

49 - انظر على سبيل المثال: طبقات النحويين واللغويين: الزبيدي، ص 68 وما بعدها. وأخبار النحويين البصريين: السيرافي، ص 48 وما بعدها. والبلغة في ترجم أئمة النحو واللغة: الفيروزابادي، ص 163 وما بعدها. ومعجم الأدباء: ياقوت الحموي، ج 15، ص 114 وما بعدها. وبغية الوعاة: السيوطي، ص 229 وما بعدها.

مقوّم من أهم مقوّمات التّحليل النّحوي. ويمكننا تلمس ذلك في كثير من المظان، ومنها:

- «أَنْشِدَنَا لِبَعْضِ الْعَرَبِ الْمُوْثَقَ بِهِمْ»⁵⁰.
 - «وَأَنْشَدُوا هَذَا الْبَيْتَ عَلَى وَجْهِينَ: عَلَى النَّصْبِ وَالرَّفْعِ»⁵¹.
 - «أَنْشَدَنَا يَوْنَسٌ مَرْفُوعًا عَنْهُمْ»⁵².
 - «وَقَدْ أَنْشَدَ بَعْضَهُمْ هَذَا الْبَيْتَ رَفِيعًا»⁵³.
 - «أَنْشَدَنَا يَوْنَسٌ لَجَرِيرٍ... أَنْشَدَنَا مَنْصُوبًا وَزَعَمَ أَنَّ الْعَرَبَ كَذَا تَشَدَّهُ»⁵⁴.
 - «إِنْشَادُ بَعْضِ الْعَرَبِ قَوْلَ الْفَرْزَدقِ»⁵⁵.
 - «وَقَالَ الْأَعْشَى وَأَنْشَدَنَا يَوْنَسٌ...»⁵⁶.
 - «أَنْشَدَنِيهِمَا الْأَصْمَعِي عَنْ أَبِي عُمَرٍ وَلِبَعْضِ بْنِي أَسْدٍ»⁵⁷.
- ويقتضي الإنشاد من المتكلم الاستماع من المتلقى؛ ومن ثم كثرت مادة "سمع" كثرة لافتة في الكتاب، لتوكيد حقيقة تلقى سيبويه للغة، وأنه تلقٌ قائم على السَّمَاع المباشر من العرب الموثوق بفصاحتهم. ومن ذلك:
- «سَمِعْنَا الْعَرَبَ الْمُوْثَقَ بِهِمْ يَقُولُونَ..»⁵⁸.

.50 - الكتاب: ج 1 ص 9.

.51 - السابق: ج 1 ص 82.

.52 - السابق: ج 1 ص 120.

.53 - السابق: ج 1 ص 146.

.54 - السابق: ج 1 ص 279/278.

.55 - السابق: ج 3 ص 29.

.56 - السابق: ج 3 ص 39.

.57 - السابق: ج 3 ص 86.

.58 - السابق: ج 1 ص 330، وانظر: الصفحات 53، 155، 326، 388، 405، ج 4 ص 128.

- «سمعنا من يقول من يوثق به من العرب»⁵⁹.
- «كذلك سمعناها من الشاعرين اللذين قالا هما»⁶⁰.
- «سمعت عربيًّا مرة يقول ...»⁶¹.
- «سمعنا عربيًّا موثوقًا بعريبيه يقول ...»⁶².
- «هذا كله سمع من العرب»⁶³.
- «فكل هذه البيوت سمعناها من أهل الثقة هكذا»⁶⁴.
- «سمعنا العرب الفصحاء يقولون ...»⁶⁵.
- «سمعت من أثق به من العرب يقول ...»⁶⁶.
- «سمعت أعرابيًّا وهو أبو مُرْهَب يقول ...»⁶⁷.
- «سمعنا العرب الموثوق بهم ينصبونه، سمعناهم يقولون ...»⁶⁸.
- «وذلك قول العرب، سمعناه منهم»⁶⁹.
- «ومن جواز الرفع في هذا الباب أني سمعت رجلين من العرب عربين يقولان ...»⁷⁰.

-
- . - السابق: ج 3 ص 425، وانظر: ج 4 ص 122، 464
 - . - السابق: ج 2 ص 69، وانظر: ص 67، ج 3 ص 58، 85
 - . - السابق: ج 2 ص 413، 414، وانظر: ص 420، 444، ج 3 ص 13، 46
 - . - السابق: ج 3 ص 98، وانظر: ص 244، ج 3 ص 248
 - . - السابق: ج 1 ص 147، وانظر: ج 3 ص 158
 - . - السابق: ج 3 ص 137
 - . - السابق: ج 1 ص 219، وانظر: ج 2 ص 412، 415، ج 3 ص 157، 238، 505، ج 4 ص 131، 133، 134، 138، 478
 - . - السابق: ج 1 ص 30، وانظر: ج 2 ص 345، 347، ج 3 ص 315، 397، 198، 138، 472
 - . - السابق: ج 1 ص 328، وانظر: ج 3 ص 155
 - . - السابق: ج 1 ص 196، وانظر: ص 423، ج 2 ص 51، ج 3 ص 233، 533
 - . - السابق: ج 1 ص 412، وانظر: ج 3 ص 128
 - . - السابق: ج 2 ص 26، 27
 - . - 70

- «سمعنا جميع ما ذكرنا لك من الإِمالة والنصب في هذه الأبواب من العرب»⁷¹.

في هذه الموضع كلها – وغيرها كثير – يصرّح سيبويه أنه سمع مباشرة من العرب، مما يؤكّد الجانب الشفاهي في عملية التلقّي، بل إن سيبويه في أحيان كثيرة يجمع بين مادة "نشد" و "سمع"، لتأكيد عملية المشافهة، ومن ذلك:

- «سمعناه من العرب ينشدونه ... وزعموا أن بعض العرب يقول ...»⁷².

- «سمعنا بعض العرب ينشده كذا»⁷³.

- «سمعت رجلاً من العرب ينشد هذا البيت كما أخبرك به»⁷⁴.

- «سمعناهم ينشدون هذا البيت للأخطل هكذا»⁷⁵.

- «سمعناها تنشد هذا البيت جرّاً»⁷⁶.

- «هكذا سمع من العرب تنشده»⁷⁷.

وكتيرًا ما كان سيبويه يسأل العرب المؤتوق بفصاحتهم ليتأكّد من الرأي الصحيح، فالعرب الفصحاء هم مرجعه عند الخلاف في أي مسألة، ورأيهم هو المعتبر، ومن ذلك:

- «وسألنا العرب فوجذناهم يوافقونه»⁷⁸.

.71 - السابق: ج 4 ص 143.

.72 - السابق: ج 1 ص 86.

.73 - السابق: ج 1 ص 405.

.74 - السابق: ج 3، ص 144.

.75 - السابق: ج 4 ص 116.

.76 - السابق: ج 2 ص 20.

.77 - السابق: ج 1 ص 139.

.78 - السابق: ج 3 ص 290.

- «وزعم الخليل - رحمه الله - أن قوله: رَبِحْتُ الدِّرْهَمَ درهماً، محالٌ، حتى تقول: في الدرهم وللدرهم، وكذلك وجدها العرب يقول»⁷⁹.
- «والذي ذكرت لك قول الخليل، ورأينا العرب توافقه بعدما سمعناه منه»⁸⁰.
- «قال الخليل - رحمه الله - من قال: يا زيدُ والنضرَ، فنصب فإنما نصب لأن هذا كان من المواضع التي يُرد فيها الشيء إلى أصله. فأما العرب فأكثر ما رأيناهم يقولون: يا زيدُ والنضرُ»⁸¹.
- «زعم الخليل أنهن نكرات [يقصد نحو: قدام، أمام] ... كما يكون أيُّمن وأشْمُل نكرة. وسألنا العرب فوجدناهم يوافقونه»⁸².
- «وأما يونس فكان يقول: مِنْ قَدَامَ، ويجعلها معرفة، وزعم أنه منعه من الصرف أنها مؤنثة ... وهذا مذهب إلا أنه ليس يقوله أحد من العرب. وسألنا العلوين والتميميين فرأيناهم يقولون: مِنْ قُدَيْدِيمَةٍ، ومنْ وُرَيْتَةٍ، لا يجعلون ذلك إلا نكرة، كقولك: صباحاً ومساءً وعشيةً وضحوةً، فهذا سمعناه من العرب»⁸³.
- «حدثنا بذلك الخليل عن العرب وأنشدا بيتاً ... وسمعناه من العرب كما أنشده الخليل»⁸⁴.
- «فإنما تجربها كما أجرت العرب»⁸⁵.

.395 - السابق: ج 1 ص 79

.80 - الكتاب: ج 2 ص 117

.81 - السابق: ج 2 ص 186، 187

.82 - الكتاب: ج 3 ص 290

.83 - السابق: ج 3 ص 291

.84 - السابق: ج 4 ص 115

.85 - السابق: ج 1 ص 330

- «فاستعمل من هذا ما استعملت العرب، وأجز منه ما أجازوا»⁸⁶.
- «والحجّة على أنّ هذا في موضع رفع أنّ أبا الخطاب حدثنا أنّه سمع من العرب الموثوق بهم من ينشد هذا البيت رفعاً»⁸⁷.
- «وليس كل شيء نحوه ما يُفعل به ذا، إنما يؤخذ بالسمع»⁸⁸.

وكل تلك النصوص – وغيرها كثير – يكشف لنا مدى احترام سيبويه لكلام العرب، وأن السَّماع المباشر ينبغي أن يكون هو الفيصل والمعيار في القبول أو الرفض.

بـ- تلقّي اللّغة عن شيوخه:

كما كانت علاقة سيبويه بالعرب قائمة على المشافهة والتلقي الحي المباشر، كذلك كانت علاقته بأساتذته وشيوخه، ولم يرد أي خبر يفيد أن سيبويه كان يقرأ من كتب شيوخه، خاصة أنه لم يكن ثم كتب في النحو في هذا الوقت، بل كان السؤال المباشر شفاهة هو الوسيلة الأساسية للتلقي، فهو يشافههم ويحاورهم، ويسألهُم ويناقشهم؛ لذلك كثُرت الكلمات الدالة على المشافهة، مثل: سألت، وقال، وقلت، وأخبرني، وذكر، وزعم، وسمعت. ويظهر ذلك في نصوص كثيرة، منها:

- «وزعم أبو الخطاب - وسألته غير مرة - أن ناساً من العرب يوثق بعربيتهم، وهم بنو سليم، يجعلون باب قلت أجمع مثل ظننت»⁸⁹.
- «زعم عيسى بن عمر أن ناساً من العرب يقولون: إذن أفعل ذاك، في الجواب، فأخبرت يونس بذلك، فقال: لا تُبعِّدَنَّ ذا. ولم يكن ليروي إلا ما سمع، جعلوها بمنزلة "هل" و"بل"»⁹⁰.

.86 - السابق: ج 1 ص 414. وانظر: ج 2 ص 69.

.87 - السابق: ج 2 ص 329.

.88 - السابق: ج 3 ص 555، وانظر: ص 568، ج 3 ص 540.

.89 - السابق: ج 1 ص 124.

.90 - السابق: ج 3 ص 90.

- «وسمعت يونس يقول: ما أتيتني فأحدثك فيها مستقبل، فقلت له: ما تريد به؟ فقال: أريد أن أقول: ما أتيتني فأنا أحدثك وأكرنك فيها مستقبل... وسألته عن: ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة، فقال: هذا واجب، وهو تنبئه، كأنك قلت: أتسمع أن الله أنزل من السماء ماء فكان كذلك»⁹¹.

- «وسألت الخليل / عن: ما أحسن وجوههم، فقال: لأن الاثنين جميع، وهذا بمنزلة قول الاثنين: نحن فعلنا ذلك»⁹².

- «وسألت الخليل عن: مررت بزيد وأتاني أخوه أنفسهما، فقال: الرفع على: هما صاحباه أنفسهما، والنصب على أعندهما»⁹³.

- «وسمعنا بعض العرب يقول: الحمد لله رب العالمين، فسألت عنها يونس، فزعم أنها عربية»⁹⁴.

- «وسأله عن رجل يسمى دهقان، فقال:، وسألت الخليل عن رجل يسمى مُرّانا، فقال:، وسألته عن رجل يسمى فيناراً فقال:، وسألته عن ديوانٍ فقال:، وسألته عن رمان فقال:، وسألته عن سعدان والمرجان فقال:، وسألته عن تحريف عَلْقَى اسم رجل فقال: ...»⁹⁵.

- «وزعم الخليل أن (إن) هي أم حروف الجراء، فسألته: لم قلت ذلك؟ فقال: ...»⁹⁶.

.91 - السابق: ج 3 ص 40.

.92 - السابق: ج 2 ص 48.

.93 - السابق: ج 2 ص 60.

.94 - السابق: ج 2 ص 63.

.95 - السابق: ج 3 ص 217. وانظر: ج 3 ص 224، 245، 246.

.96 - السابق: ج 3 ص 63. وانظر: ج 2 ص 149، ج 3 ص 49، 50، 54، 59. وقد كثر سؤال سيبويه للخليل لدرجة أنها في بعض الأبواب التي لا تشغله أكثر من أربع صفحات نجده يسأل الخليل ست مرات، مما يدل على غلبة المشافهة. انظر: ج 3 من ص 100 حتى ص 103 «باب الحروف التي تنزل بمنزلة الأمر والنهي لأن فيها معنى الأمر والنهي». والأمر نفسه في «هذا باب الأفعال في القسم» ج 3 من ص 104 حتى ص 108، وكذلك «هذا باب ما لا ينصرف في المعرفة» ج 3 ص 216، وهذا الباب حوالي أربع صفحات تكرر فيها سؤال سيبويه للخليل سبع مرات.

تكشف هذه العينة من النصوص عن طبيعة الدرس النحوى في ذلك الوقت، وتؤكد أن التلقى الشفاهى كان هو الوسيلة الوحيدة المعتمدة بين الشيخ وتلاميذه.

والجدير بالذكر أن علاقة المشافهة لم تكن قائمة على مجرد السؤال وتلقى الإجابة، بل كانت هناك «حالة» يمكننا أن نطلق عليها «حالة حوار شفاهي» بين تلميذ فاهم واع وشيوخه المقدرين لذكاء ذلك التلميذ، ويظهر ذلك جلياً في كثير من الحوارات التي دارت بين سيبويه والخليل، ومنها هذا الحوار الشفاهي الممتع في باب المنادى، يقول سيبويه:

«زعم الخليل / أنهم نصبووا المضاف نحو: يا عبد الله، ويا أخانا، والنكرة حين قالوا: يا رجلاً صاحاً، حين طال الكلام كما نصبووا: هو قبك، وهو بعدك، ورفعوا المفرد كما رفعوا قبل وبعد ... قلت: أرأيت قولهم: يا زيد الطويل، علام نصبووا الطويل؟ قال: نصب لأنّه صفة لمنصوب. وقال: وإن شئت كان نصباً على «أعني»، فقلت: أرأيت الرفع على أي شيء هو إذا قال: يا زيد الطويل؟ قال: هو صفة لمرفوع. قلت: ألسْت قد زعمت أن هذا المرفوع في موضع نصب، فلم لا يكون كقوله: لقيته أمس الأحدث؟ قال: من قبل أن كل اسم مفرد في النداء مرفوع أبداً، وليس كل اسم في موضع «أمس» يكون مجروراً، فلما اطرد الرفع في كل مفرد في النداء صار عندهم بمنزلة ما يرتفع بالابتداء أو بالفعل، فجعلوها وصفه إذا كان مفرداً بمنزلته. قلت: أفرأيت قول العرب كُلَّهم:

أَزِيدُ أَخَا وَرْقَاءِ إِنْ كُنْتَ ثَائِرًا ❁ فَقَدْ عَرَضْتَ أَحْنَاءَ حَقٌّ فَخَاصِمِ

لأي شيء لم يجز فيه الرفع كما جاز في «الطويل»؟ قال: لأن المنادى إذا وصف بالمضاف فهو بمنزلته إذا كان في موضعه، ولو جاز هذا لقلت: يا أخونا، تريد أن تجعله في موضع المفرد، وهذا لحن، فالمضاف إذا وصف به المنادى فهو بمنزلته إذا ناديته ... وسألته عن: يا زيد نفسه، ويا تميم كلّكم، ويا قيس كلّهم، فقال: هذا كله نصب، كقولك: يا زيد ذا الجمة، وأما: يا تميم أجمعون، فأنت فيه

بالخيار ... قلت: أرأيت قول العرب: يا أخانا زيداً أقبل؟ قال: عطفوه على هذا المتصوب، فصار نصباً مثله، وهو الأصل لأنه منصوب في موضع نصب، وقال قوم: يا أخانا زيد⁹⁷».

هذا حوار ممتع أثبته – رغم طوله – لأنه يكشف عن طبيعة البيئة الشفاهية التي نما فيها النحو العربي وازدهر، ويكشف النص – كذلك – عن دراية سيبويه وخبرته بلغة العرب وأساليبها، كما يتضح لنا أن الأساس في استقصاء الآراء وتحقيقها وتحليلها كان هو الحوار الشفاهي.

وربما خالف سيبويه شيوخه، معتمداً في ذلك على سماعه الخاص المباشر من العرب، ومن ذلك مخالفته لشيخيه الجليلين: الخليل ويونس، ففي باب «أيّ» يورد سيبويه رأي الخليل في نحو قوله: اضرب أئِيمْ أَفْضَل، حيث يرى الخليل أن «أئِيمْ» رفع «على أنه حكاية، كأنه قال: اضرب الذي يقال له أئِيمْ أَفْضَل»⁹⁸.

ثم يذكر سيبويه رأي يونس: «وأما يونس فيزعم أنه بمنزلة قولك: أشهد إنك لرسول الله»⁹⁹، ويقصد يونس أن الفعل عُلِقَ عن العمل.

وبعد أن ذكر سيبويه رأي شيخيه يذكر رأيه الخاص، فيرى أن تلك الضمة هي ضمة بناء، تماماً مثل فتحة البناء، يقول: «وأرى قوله: اضرب أئِيمْ أفضل على أنهم جعلوا هذه الضمة بمنزلة الفتحة في خمسة عشر، وبمنزلة الفتحة في «الآن» حين قالوا: من الآن إلى غدٍ، فجعلوا ذلك بأئِيمْ»¹⁰⁰، ثم يعلق على رأي الخليل ويونس، ويبين سبب رفضه لها بقوله: «وتفسير الخليل ذلك

97 - الكتاب: ج 2 من ص 182 حتى ص 185 (بتصرف بالحذف)، وانظر: ج 2 من ص 368 حتى ص 373 حيث يدور حوار مماثل لهذا الحوار، وانظر أيضاً: ج 2 ص 308، ج 3 ص 224، 225.

98 - السابق: ج 2 ص 399.

99 - السابق: ج 2 ص 400. وقد ضعف الأعلم الشت默ري رأي يونس بقوله: «وهذا القول ضعيف، وإنما تعلق أفعال القلوب على الاستفهام، كقولك: أتظن أئِيمْ في الدار، واعرف أزيدُ في الدار أم عمرو، وتعليقه أن يبطل عمله في ما بعده». النكت في تفسير كتاب سيبويه: ج 1 ص 679.

100 - الكتاب: ج 2 ص 400.

الأول بعيد، إنما يجوز في شعر أو في اضطرار، ولو ساغ هذا في الأسماء لجاز أن تقول: اضر ب الفاسقُ الخبيثُ، تريد الذي يقال له الفاسق الخبيث، وأما قول يونس فلا يشبه: أشهد إنك لمنطلق»¹⁰¹.

إننا أمام نحوي عميق الفهم واسع الاطلاع على لغة العرب، يحاور أساتذته ويناقشهم اعتماداً على محصوله من السماع عن العرب؛ ولذلك نراه أحياناً يرجح رأى بعض شيوخه على غيره من الآراء، ومن ذلك قوله: «سألت الخليل عن قول الأعشى:

إن تركبوا فركوبُ الخليل عادُنَا ❁ أو تنزلون فإنما معاشرُ نُزُلٌ

فقال: الكلام هاهنا على قوله: يكون كذا أو يكون كذا، لما كان موضعها لو قال فيه: أتركبون لم ينقض المعنى، صار بمنزلة قوله: ولا سابق شيئاً، وأما يونس فقال: أرفعه على الابتداء، كأنه قال: أو أنتم نازلون، وعلى هذا الوجه فسر الرفع في الآية، كأنه قال: أو هو يرسل رسولًا، كما قال طرفة:

* أو أنا مفتدي *

وقول يونس أسهل، وأما الخليل فجعله بمنزلة قول زهير:

بداليَّ أني لستُ مدركَ ما مضى ❁ ولا سابقٍ شيئاً إذا كان جائيا

والإشكال على هذا التوهم بعيد، كبعد «ولا سابقٍ شيئاً»¹⁰².

فسيبويه يرجح رأي يونس بما سمعه من كلام العرب، كذلك اعتمد على سماعه في ترجيح رأي يونس على رأي الخليل في إثبات الياء أو حذفها في الاسم المقوص في النداء، يقول سيبويه: «سألت الخليل عن (القاضي) في النداء، فقال: اختار: يا قاضي، لأنه ليس بمنون، كما أختار: هذا القاضي. وأما يونس فقال: يا

101 - السابق: ج 2 ص 401. وانظر: ج 2 ص 410، وج 3 ص 411.

102 - الكتاب: ج 3 ص 50، 51.

قاضٍ. وقول يونس أقوى، لأنَّه لما كان من كلامهم أن يحذفوا في غير النداء، كانوا في النداء أجدر، لأنَّ النداء موضع حذف، يحذفون التنوين ويقولون: يا حارِ، ويا صاحِ، ويا غلامُ أقبل»¹⁰³، فقد اعتمد في ترجيحه لرأي يونس على ما سمعه من كلام العرب.

يتضح لنا مما سبق أنَّ سيبويه كان له سَمَاعُه المباشر عن العرب الموثوق بعربتهم، كما سمع من شُيوخه، واتضح لنا أنه كان يجعل السَّمَاع فيصلًاً في قبول الظاهرة أو رفضها؛ من أجل ذلك نقرر أنَّ سيبويه اعتمد على ذلك المسموع في تحليله لمختلف الظواهر اللغوية، وسوف يتضح ذلك الأمر في تحليلاته التي سوف نتعرَّض لها.

ثانيًا: التَّحليل:

ارتکز سيبويه في تحليله لمختلف الظواهر اللغوية، والأبواب النحوية على المشافهة والنطق لا الرسم والكتابة، وسوف نورد فيما يأتي نماذج مختلفة من تلك الظواهر، والأبواب النحوية، التي تبيَّن أثر المشافهة في عملية التحليل النحوي:

1- الظواهر اللغوية:

أ- الأصوات التي ليس لها رموز كتابية:

يؤكِّد حديث سيبويه عن الأصوات المفردة انطلاقه من الصورة المشافهة المنطقية؛ إذ لم يكتفُّ ببيان طبيعة الأصوات المعروفة ومخارجها ومهمومتها ومجهورها¹⁰⁴، بل تعدى ذلك إلى وصف كيفيات نطقية لأصوات ليس لها رموز كتابية، مما ينفي شبهة تأثيره بالشكل المكتوب، ويؤكِّد انطلاقه من المنطق، فقد

.103 - السابق: ج 4 ص 184.

104 - عقد سيبويه بباباً بعنوان «هذا باب عدد الحروف العربية ومخارجها ومهمومتها ومجهورها، وأحوال مجهورها ومهمومتها واختلافها». انظر: ج 4 ص 431 وما بعدها. كما تحدث عن وصف الحروف تحت باب «الإدغام» ج 4 من ص 431 حتى ص 485.

ذكر سيبويه أن أصل الحروف العربية تسعه وعشرون حرفاً¹⁰⁵، ثم أشار إلى صور فرعية أخرى مقسماً إياها أقساماً: فمن هذه الصور الفرعية للأصوات العربية ما يستحسن في قراءة القرآن والشعر، وهي ستة أصوات. يقول سيبويه: «وتكون خمسة وثلاثين حرفاً بحروف هن فروع وأصولها من التسعة والعشرين، وهي كثيرة يؤخذ بها وتستحسن في قراءة القرآن والأشعار، وهي النون الخفيفة، والهمزة التي بين، والألف التي تمال إمالة شديدة، والشين التي كالجيم، والصاد التي تكون كالزاي وألف التفخيم، يعني بلغة أهل الحجاز في قولهم: الصلاة والزكاة والحياة»¹⁰⁶. وهذه الأصوات الستة الفرعية ليس لها رمز كتابي كبقية الأصوات؛ لأنها تعد تحويلاً للأصوات الأصلية، ولا يمكن معرفة هذه الأصوات الفرعية بالكتابة، ولكن لابد أن تؤخذ بالسماع والمنافهة.

ومن هذه الصور المنطقية الفرعية قسمٌ قبيح لا يستحسن في قراءة القرآن أو الشعر، وهي سبعة أصوات. يقول سيبويه: «وتكون اثنين وأربعين حرفاً بحروف غير مستحسنة ولا كثيرة في لغة من تُرضى عربته، ولا تستحسن في قراءة القرآن ولا في الشعر، وهي: الكاف التي بين الجيم والكاف، والجيم التي كالكاف والجيم التي كالشين، والضاد الضعيفة، والصاد التي كالسين، والطاء التي كالباء، والظاء التي كالثاء، والباء التي كالفاء»¹⁰⁷.

وقد صرّح سيبويه بأن تلك الكيفيات الأدائية لا تعرف إلا بالمناففة والسماع، يقول: «وهذه الحروف التي تتمّتها اثنين وأربعين جيدها ورديتها أصلها التسعة والعشرون، لا تُتبَّئن إلا بالمناففة»¹⁰⁸. فمن الواضح - إذن - أن

105 - انظر: ج 4 ص 431.

106 - السابق: ج 4 ص 432.

107 - السابق: نفس الموضع.

108 - السابق: ج 4 ص 432. وانظر: ص 433 وما بعدها، حيث ذكر سيبويه أن مخارج الأصوات العربية ستة عشر مخرجاً، وفصل الحديث فيها.

الرجل يحمل تراكيب مشافهة منطقية؛ لذلك التفت إلى تلك الصور التي لا وجود لها على مستوى الرسم والكتابة، بل هي من خصائص الأداء المنطوق المشافه.

بـ- الحركات الطويلة، أو أصوات العلة:

يأخذ بعض المحدثين على النحاة أنهم «عدوا حروف المد، وهي الألف في مثل: قام، والواو في مثل: يدعوا، والياء في مثل: القاضي – أصواتاً صامتة ... في حين أن الألف والواو والياء في مثل هذه الواقع علامات لأصوات الفتحة الطويلة والضمة الطويلة والكسرة الطويلة. وقد وقعوا في هذا الخطأ أيضاً بسبب أن الخط العربي يرمز للحركات الطويلة برمز في داخل بنية الكلمة بعكس الحركات القصيرة»¹⁰⁹، فالنحاة – حسب وجهة نظر الدكتور رمضان عبد التواب – لم يدركوا أن مثل هذه الأصوات حركات طويلة، بل عاملوها على أنها من الصوامت.

ويبني الدكتور رمضان على الفرض السابق نتيجة مفادها أن النحاة وقعوا في أخطاء تحليلية، ومن ذلك – حسب وجهة نظره – «أنهم يقولون في المضارع المعتل الآخر عند جزمه في مثل: لم يدع، ولم يخش ولم يرم – إنه مجزوم بحذف حرف العلة، فهم هنا ينظرون إلى الخط لا إلى النطق، ولو نظروا إلى النطق لقالوا إنه مجزوم بتقصير الحركة»¹¹⁰.

والرأي السابق نفسه يراه الدكتور داود عبد، حيث يرى سيادته أن قول النحاة في مثل: لم يقل، لم يخف، لم يبع: إن حرف العلة حذف – يرى سيادته أن ذلك من تأثير الرسم الكتابي¹¹¹ والأولى عنده أن يقال إن العلة قد قصرت ولم

109 – فصول في فقه العربية: د. رمضان عبد التواب، ص 397، 398 (بتصرف بالحذف).

110 – السابق: ص 408. وانظر: التنوعات اللغوية، ص 96، حيث يذكر نفس الاتهام.

111 – انظر: دراسات في علم أصوات العربية، ص 43.

تحذف¹¹²، ثم يعلق بقوله: «ولعل الذين اعتبروا ظاهرة تقصير العلة الطويلة في مثل: يبع ويقل وينم حذفًا لـ«حرف العلة» قد تأثروا بنظام الكتابة العربية، وما يشير إلى هذا أن ليس هناك من يتحدث عن «حذف حرف العلة» في مثل: في اقتصاد، حيث تلفظ «فَقْتَصَادٌ (قارن بالفعل: فِقْتٍ)، وأخَا الْوَلَدُ، حيث تلفظ أَخْلُولَدُ (قارن بالفعل المجزوم أَخَّلُ).»¹¹³.

والواقع أن مثل هذا الاتهام يبدو مجازيًّا للحقيقة؛ إذ يبدو جليًّا من تحليلات سيبويه أنه كان على وعي تام بأن الفارق بين الحركات القصيرة والطويلة هو فارق في الكمية لا في النوع، يقول سيبويه موضحاً قرب الفتحة من الألف: «وحركته الفتحة؛ لأنَّه يلي الحرف الذي منه الفتحة وهو الألف»¹¹⁴، ويقول أيضًا: «... كان أَجْدَرُ أَن تكون حركته مفتوحة؛ لأنَّه حيث قُرُبَ من الحرف الذي منه الفتحة ...»¹¹⁵ ، فالفتحة من الألف؛ ولذلك يقرر سيبويه أنه لا يمكن تحريك ما قبل الألف إلا بالفتحة، دلالة على الارتباط الوثيق بينهما. يقول: «واعلم أنَّ الألف التي تلحق المندوب تُفتح كل حركة قبلها، مكسورة كانت، أو مضمومة، لأنَّها تابعة للألف، ولا يكون ما قبل الألف، إلا مفتوحًا»¹¹⁶ ، ويقول أيضًا: «فجعلوا حركتها من الحرف الذي في حيزها وهو الألف»¹¹⁷، و«الفتح من الألف»¹¹⁸.

ويصرح سيبويه بطبيعة العلاقة بين الحركات وحروف المد بقوله: «إنما الحركات من الألف والياء والواو»¹¹⁹، ويزيد الأمر وضوحاً بقوله: «فالفتحة من

112 - انظر: السابق، 45.

113 - السابق: نفس الصفحة. وسوف يتضح لنا أن النحاة التفتوا إلى الحذف في مثل هذه التراكيب، ونصوا على ذلك بكل دقة ووضوح. وانظر: أبحاث في اللغة: د. داود عبده، ص 48.

114 - الكتاب، تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون، ج 2 ص 265.

115 - السابق: نفس الصفحة.

116 - السابق: ج 2 ص 220.

117 - السابق: ج 4 ص 101.

118 - السابق: ج 4 ص 118.

119 - السابق: ج 4 ص 101.

الألف، والكسرة من الياء، والضمة من الواو»¹²⁰، ولا أظن أن حديث سيبويه فيه لبس أو غموض، حيث يقرر بكل وضوح طبيعة العلاقة بين حروف المد والحركات القصيرة، وأنها علاقة كل بجزء، وقد كرر نفس الفكرة في قوله: «فأبدلوا هذه الحروف¹²¹ التي منها الحركات، لأنها أخوات وهي أمهات البدل والزوائد، وليس حرف يخلو منها أو من بعضها، وبعضها حركاتها»¹²²، ويعلق السيرافي بقوله: «يعني أنهم أبدلوا المهمزة ألفاً في حال، وباءً في حال، وواواً في حال، وهي الحروف المأخوذة منها الحركات»¹²³. ويؤكد سيبويه علاقة "الجزئية" بقوله: « وإنما الكسرة من الياء»¹²⁴.

وتبدو العلاقة الجزئية واضحة في تعليق الأعلم الشتتمري على بعض كلام سيبويه، يقول الأعلم: «إن سأل سائل فقال: إذا قلت: لم يرم، فما عالمة الجزم فيه؟ قيل له حذف الياء. فإن قال: كيف جاز أن يكون حذف حرف من الكلمة عالمة إعراب؟ قيل له: إنما جاز ذلك، لأن هذا الحرف مُشتبه للحركة، وذلك أن الحركة منه مأخوذة، وعلى قول بعضهم: هو حركة مشبعة، ومع ذلك فقد كان في حال الرفع لا تدخله حركة كما لا تدخل الحركة حرفة، فلما أشبه الحركة، والجزم يحذف ما يصادف من الحركات حذف هذه الياء، إذ كانت بمنزلة الحركة، فكان حذفها جزماً كما يكون حذف الحركة»¹²⁵. فالأعلم -في شرحه لكتاب سيبويه- يؤكد أن «الواو» في نحو: يدعوه، إنما هي حركة، لذلك لم يصح أن يدخله في حال الرفع حرفة أخرى، لأنه «لا تدخل الحركة حرفة»، كما أن الحركة مأخوذة من ذلك الحرف، وحرف المد ما هو إلا حركة مشبعة.

120 - السابق: ج 4 ص 242.

121 - يقصد حروف المد: الألف والواو والياء.

122 - السابق: ج 3 ص 544.

123 - السابق: نفس الجزء والصفحة.

124 - السابق: ج 3 ص 272.

125 - النكث في تفسير كتاب سيبويه، تحقيق: د. زهير عبد المحسن سلطان، ج 1 ص 128، 129.

بل إننا نعجب من دقة سيبويه الفائقة حين يلتفت إلى "كمية" الحركات ذاتها، دون تأثر بالرسم، فنراه يقرر في باب "ما يحتمل الشعر" أن الحركة قصرت ولم تشبع في قول الأعشى:

وَمَا لِهُ مِنْ مَجْدٍ تَلِيدٌ وَمَا لَهُ ❁ مِنْ الرِّيحٍ حَظٌ لَا جَنُوبٌ وَلَا صَبَا

فلو طالت ضمة الماء في كلمة "له" الأولى فصارت واواً لانكسر الوزن، مع ملاحظة أن الرسم الكتابي لكلمة "له" لا يتغير في الحالين؛ الأمر الذي يؤكّد انطلاق سيبويه من المستوى الشفاهي المنطوق في التحليل.

أما اتهام الدكتور داود عبده للنحاة بأنهم لم يقولوا بالحذف في نحو «في اقتصاد» و«أخًا الولد» فإنه يبدو اتهامًا تعوزه الدقة؛ ذلك أن سيبويه التفت إلى تلك الصورة من حذف الحركة الطويلة إذا وليها ساكن، حتى ولو لم تحذف صورة الحركة الطويلة من الخط، وما ذلك إلا لأنّه ينطلق من الأداء الصوتي المشافه، ولم يتأثر بالرسم في تحليلاته، يقول سيبويه تحت عنوان «هذا باب ما يحذف من السواكن إذا وقع بعدها ساكن»¹²⁶: «وذلك ثلاثة أحرف: الألف، والياء التي قبلها حرف مكسور، والواو التي قبلها حرف مضموم. فأما حذف الألف فقولك: رمى الرجل، وأنت تريده: رمى، ولم يخف، وإنما كرهو تحرיקها؛ لأنها إذا حُرّكت صارت ياءً أو واواً، فكرهوا أن تصير إلى ما يستقلون فحذفوا الألف، حيث لم يخافوا التباسًا. ومثل ذلك: هذه حُبلى الرجل، ومعزى القوم، وأنت تريده: المعزى، والحبلى، كرهو أن يصيروا إلى ما هو أثقل من الألف، فحذفوا حيث لم يخافوا التباسًا»¹²⁷، فرغم ثبوت حرف المد في الرسم فإن سيبويه يقول بحذفه؛ نظرًا لمجيء الساكن بعده، وهذا الحذف على مستوى النطق

126 - انظر: الكتاب، ج 4 ص 156.

127 - السابق: نفس الجزء والصفحة.

المشافه لا الكتابة، وهو يساوي الحذف في عبارة «أخا الولد» التي زعم الدكتور داود عبده أن النحاة لم يلتفتوا إليها، ولم يقولوا بالحذف فيها.

ثم يمثل سيبويه لحذف الياء بقوله: «هو يرمي الرجل، ويقضي الحق، وأنت تريده: يقضي ويرمي، كرها الكسرة كما كرها الجر في: قاضٍ، والضم فيه كما كرها الرفع فيه، ولم يكونوا ليفتحوا فليبس بالنصب؛ لأن سبيلاً هذا أن يكسر، فحذفوا حيث لم يخافوا التباساً»¹²⁸، فالإياء ثابتة في الرسم في قولنا: هو يرمي الرجل، ومع ذلك يقرر سيبويه بكل وضوح أن الإياء قد حذفت؛ نظراً لأنه يحلل تركيباً مشافهاً منطوقاً حذفت منه الإياء فعلاً رغم ثبوتها رسمياً، وهذا التركيب يقابل التركيب الذي مثل به الدكتور داود: «في اقتصاد»، وزعم أن النحاة لم يلتفتوا إليه.

ويمثل سيبويه لحذف الواو بقوله: «يغزو القوم، ويدعو الناس وكرها الكسر كما كرها الضم هناك، وكرها الضم هنا كما كرها الكسر في يرمي»¹²⁹.

كيف بعد كل ذلك الواضح والبسيط يزعم زاعم أن النحاة لم يلتفتوا إلى تلك الصور من الحذف؟؟؟، وكيف يزعم زاعم أن النحاة تأثروا بالرسم في تحليلاتهم؟؟؟

128 - السابق: ج 4 ص 157.

129 - السابق: ج 4 ص 157. وقد أشار الأستاذ عباس حسن إلى موقف النحاة السابق عند حديثه عن التقاء ألف الساكن بعدها، مثل: غاب حارساً المقل فيقول: «فإن علامة الشنية (وهي ألف) تُحذف نطقاً لا خطأً، ويرجح النحاة في إعرابه أن يقال: إنه مرفوع بألف مقدرة. وكذلك الشأن في جمع المذكر، فإنه إذا أضيَّف حذف نونه للإضافة، فإن كانت إضافته إلى كلمة أولها ساكن حذفت واوه رفعاً. ويأوه نصباً وجراً، في النطق لا في الكتابة، تقول: جاء عالمو المدينة، وكرمت عالي المدينه، وسعيت إلى عالي المدينه. لكن ما إعرابه؟ أيكون مرفوعاً بالواو الظاهرة في الكتابة أم بالواو المقدرة المحذوفة في النطق للتقاء الساكني؛ فهي محذوفة لعلة، فكأنها موجودة؟ وكذلك في حالة النصب والجر، أيكون منصوباً ومجروحاً بالإياء المذكورة أم المقدرة؟ يرتضي النحاة أنه معرب في جميع حالاته بالحرف المقدر؛ لأنهم هنا يقدمون النطق على الكتابة». النحو الوافي: ج 1 ص 159.

جـ- الخفة والثقل:

لعل من أكبر الدلائل على انطلاق سيبويه من الصورة المشافهة للتركيب قوله بقانون «الخفة والثقل»؛ إذ لا يتصور – عقلاً – ثقل أو خفة في المكتوب، بل يكون ذلك في النطق والمشافهة، فتستقبل صورة معينة، وتستخف صورة أخرى، فالخفة والثقل «يرتبطان أشد الارتباط بالأداء النطقي لدى المتكلمين»¹³⁰، ومن المعروف أن المتكلم – أي متكلم – يحاول عند عملية النطق أن يقتصر في جهده الحركي طلباً للخفة في السياقات العادية، وتلك ظاهرة «لا نعلم لغة بمنأى عنها»¹³¹، ومن ثم حرص الذوق العربي على «كراهية توالي المثلين والمتقاربين والمعارضين»¹³²، وقد أوجد العربي حلاًً لمشكلة تجاور الأصوات التي تتسم بالثقل عن طريق الإدغام والإخفاء والإقلاب والإعلال والإبدال والنقل والقلب والحذف والمناسبة¹³³.

وقد كان سيبويه على وعيٍ تام بمبدأ الخفة والثقل¹³⁴، وبدا ذلك واضحاً في تخليلاته وتعليقاته القائمة على مبدأ التخفيف أو الاستخفاف. وقد اعتمد سيبويه على ذلك المبدأ في تفسير كثير من الظواهر النحوية، مما يدل على أنه كان ينطلق من تركيب منطوق مشافهة لا مكتوبة، والملاحظ أن مبدأ الخفة والثقل كان ضابطاً لظاهرة الحذف، إذ إن حذف عنصر من عناصر التركيب يعود غالباً إلى إيهار التخفيف، خاصة عند كثرة الاستعمال، ويظهر ذلك عند سيبويه في مواضع كثيرة، منها - على سبيل التمثيل - ما يأتي:

- «واعلم أن بعض الكلام أثقل من بعض، فالأفعال أثقل من الأسماء، لأن الأسماء هي الأولى، وهي أشد تحكناً»¹³⁵.

130 - ظاهرة التخفيف في النحو العربي: د.أحمد عفيفي، ص 86.

131 - البيان في روائع القرآن: د. تمام حسان، ج 2 ص 77.

132 - السابق: نفس الجزء والصفحة.

133 - انظر: السابق، نفس الجزء والصفحة.

134 - انظر: ظاهرة التخفيف، ص 83.

135 - الكتاب: ج 1 ص 20.

- «واعلم أن العرب يستخفون فيحذفون التنوين والنون، ولا يتغير من المعنى شيء، وينجر المفعول لكتف التنوين من الاسم ... وقال الخليل: هو كائنٌ أخيك، على الاستخفاف والمعنى: هو كائنٌ أخاك»¹³⁶.

- «... ولكنهم أضمرموا استخفافاً لكثرتة كان¹³⁷ في كلامهم ... وإنما أضمرموا ما كان يقع مُظهراً استخفافاً، ولأن المخاطب يعلم ما يعني ... وأضمرموا استخفافاً»¹³⁸.

- «وزعم الخليل أن قولهم: لاِ أبوك، ولقيته أمسِ إنما هو على: لَه أبوك، ولقيته بالأمسِ، ولكنهم حذفوا الجار، والألف واللام تخفيفاً على اللسان»¹³⁹.

- «... ولكنهم قد يضمرونه ويحذفونه فيما كثر من كلامهم؛ لأنهم إلى تخفيف ما أكثروا استعماله أحوج»¹⁴⁰.

- «والترخييم حذف أواخر الأسماء المفردة تخفيفاً، كما حذفوا غير ذلك من كلامهم تخفيفاً»¹⁴¹.

- «النداء موضع تخفيف»¹⁴².

- «وتجري هذه الأشياء التي هي على ما يستخفون بمنزلة ما يحذفون من نفس الكلام»¹⁴³.

136 - السابق: ج 1 ص 165، 166 (بتصرف بالحذف).

137 - يشير إلى قولهم: إذا كان غدُّ فأنتي، حيث يرى سيبويه أن الأصل هو إذا كان ما نحن عليه من السلام، أو كان ما نحن عليه من البلاء في غد فأنتي.

138 - الكتاب: ج 1 ص 224 (بتصرف بالحذف).

139 - السابق: ج 2 ص 162، 163.

140 - السابق: ج 2 ص 163.

141 - السابق: ج 2 ص 239.

142 - السابق: ج 2 ص 248.

143 - السابق: ج 1 ص 266.

- «... فحذف استخفاً واحتصاراً ...، ومثل ذلك في ترك الألف واللام وبناء الجميع قو لهم: عشرون درهماً، إنما أرادوا عشرين من الدرهم، فاختصروا واستخفوا، ولم يكن دخول الألف واللام يغير العشرين عن نكرته فاستخفوا بترك ما لم يُحتاج إليه»¹⁴⁴.

- «فالعرب مجتمعون على الإدغام، وذلك فيما زعم الخليل أولى به؛ لأنه لما كان من موضع واحد ثقل عليهم أن يرفعوا ألسنتهم من موضع ثم يعودوها إلى ذلك الموضع للحرف الآخر، فلما ثقل عليهم ذلك أرادوا أن يرفعوا رفعة واحدة»¹⁴⁵.

وي بيان سيبويه - اعتماداً على الذوق العربي - أن للخفة والثقل درجات، فهناك الخفيف والأخف منه، وهناك الثقيل والأثقل منه، وقد تكون الخفة والثقل نسبية، مقيدة بمواقع معينة، ويظهر ذلك فيما يأتي:

- «ويستخفون الشيء في موضع ولا يستخفونه في غيره»¹⁴⁶.

- «... فكرهوا أن يفروا إلى ما هو أثقل مما هم فيه»¹⁴⁷.

- «... الكسرة أخف عليهم من الضمة، ألا ترى أن فعل أكثر في الكلام من فعل، والياء أخف عليهم من الواو وأكثر»¹⁴⁸.

- «... هذه الضمة تستقل فيما ذكرت لك، فلما صارت فيما يستقلون فاجتمعا فرُوا منها»¹⁴⁹.

144 - السابق: ج 1 ص 203 (بتصرف بالحذف).

145 - السابق: ج 3 ص 530.

146 - السابق: ج 1 ص 210.

147 - السابق: ج 3 ص 349.

148 - السابق: ج 4 ص 37.

149 - السابق: نفس الجزء والصفحة.

- «... الواو مع الضمة أَنْقَل»¹⁵⁰.
- «... ذلك أن الياء أخف عليهم؛ ولأنهم قد يفرون من استئصال الواو مع الياء إلى الياء في غير هذا الموضع، ولا يفرون من الياء إلى الواو فيه، وهي أخف»¹⁵¹.
- «... لأن الفتح أخف عليهم من الضم والكسر، كما أن الألف أخف من الواو والياء»¹⁵².

هذه النماذج - وغيرها كثير - تبين مدى اعتناء سيبويه بظاهرة الخفة والثقل التي هي مُقوّم من مقومات النطق والمشافهة، وقد اعتمدها تفسيرًا لكثير من الظواهر اللغوية؛ مما يؤكّد انطلاقه من المشافه المنطوق لا المكتوب في التحليل.

(د) - الإِمَالَة:

من أبرز ظواهر الأداء الصوتي المشافه ظاهرة الإِمَالَة؛ ذلك أن تَحْقِيقَها الفعلي بدرجاته المختلفة لا يكون إلا من خلال النطق والمشافهة. والإِمَالَة هي «أن تذهب بالفتحة إلى جهة الكسرة فتشوب الفتحة شيئاً من صوب الكسرة، فتصير الفتحة بينها وبين الكسرة، فإن كان بعدها - أي الفتحة - ألف ذهبت بالألف إلى جهة الياء، فتصير الألف بينها وبين الياء، كالفتى، بإِمَالَة الفتحة والألف، وإن يكن بعد الفتحة ألف فالماء الفتحة وحدها»¹⁵³، فالإِمَالَة بعبارة مختصرة - كما يبيّن ابن الجزري - «أن تنحو بالفتحة نحو الكسرة، وبالألف نحو الياء»¹⁵⁴.

150 - السابق: ج 4 ص 52.

151 - السابق: ج 4 ص 54.

152 - السابق: ج 4 ص 115.

153 - شرح التصريح على التوضيح: ج 2 ص 346، ولمزيد من التفصيل عن الإِمَالَة وأسبابها وموانعها انظر: ج 2 من ص 346 حتى ص 352. وانظر كذلك: النشر في القراءات العشر، لابن الجزري، ج 2 من ص 29 حتى ص 90، وانظر: كتاب الإنقاض في القراءات السبع، لابن الباذش (ت 540هـ)، ج 1 من ص 268 حتى ص 323. وانظر: شرح المفصل لابن يعيش، ج 9، من ص 53 حتى ص 66.

154 - النشر: ج 2 ص 30.

ويُطلق على الإِمالة مصطلحات أخرى، مثل: الإِضجاع، والبَطْح والكسر، وعَكُس الإِمالة هو الفتح، ويسمى أيضًا: التفحيم، والنصب¹⁵⁵. والفتح والإِمالة «لغتان فصيحتان نزل بهما القرآن»¹⁵⁶ كما أنها «لغتان مشهورتان فاشيتان على ألسنة الفصحاء من العرب الذين نزل القرآن بلغتهم، فالفتح لغة أهل الحجاز، والإِمالة لغة عامة أهل نجد من تميم وأسد وقيس»¹⁵⁷.

وللإِمالة فوائد كثيرة، منها سهولة اللفظ؛ «ذلك أن اللسان يرتفع بالفتح وينحدر بالإِمالة، والانحدار أخف على اللسان من الارتفاع، فلهذا أمال من أمال، وأما من فتح فإنه راعى كون الفتح أمنٌ أو الأصل، والله أعلم»¹⁵⁸. ويبيّن الشيخ خالد الأَزهري تلك الفائدة بقوله: «أما فائدتها فتناسب الأصوات وصيروتها من نمط واحد، وبيان ذلك أنك إذا قلت: «عابد» كان لفظك بالفتحة والألف تصعداً واستعلاءً، فإذا عدت إلى الكسرة كان انحداراً أو تسفلأً، فيكون في الصوت بعض اختلاف فإذا أملت الألف قرب من الياء وامتزج بالفتحة طرف من الكسرة فتقارب الكسرة الواقعة بعد الألف وتصير الأصوات من نمط واحد»¹⁵⁹.

ومن الواضح أن تلك الفائدة لا علاقة لها بالرسم، حيث إن ذلك التناسب، وتلك السهولة، لا يظهران إلا من خلال المشافهة والنطق الحي. وهناك فائدة أخرى من الإِمالة، وهي التنبيه أحياناً على الأصل¹⁶⁰، أو ما يسميه ابن الجوزي «الإشعار»، أي الإشعار والتنبيه على الأصل، وذلك إذا كانت الألف المهمة منقلبة عن ياء، أو عن واو مكسورة¹⁶¹.

155 - انظر: السابق، ج 2 ص 29.

156 - السابق: ج 2 ص 32.

157 - السابق: ج 2 ص 30.

158 - السابق: ج 2 ص 35.

159 - شرح التصریح على التوضیح: ج 2 ص 346.

160 - انظر: السابق، نفس الموضع.

161 - انظر: الشر، ج 2 ص 35.

وقد فَصَّلَ سيبويه القول عن الإِمَالَةِ، وقدم لها وصفاً دقِيقاً، حيث عقد باباً بعنوان: «هذا باب ما تمال فيه الألفات»¹⁶²، وتحدث فيه عن إِمَالَةِ الأَلْفِ نحو الْيَاءِ، مثل: عَابِدٌ، وعَالِمٌ، وَمَاجِدٌ، وَعَمَادٌ، وَسَرْبَالٌ وَكَلَابٌ¹⁶³. ويُظَهِرُ حديث سيبويه مدى إِلمَامِه بكيفيات الأداء الصوتي عند مختلف القبائل العربية؛ إذ نراه يقرر - بعد أن قدَّم بعض صور الإِمَالَةِ - أن جَمِيعَ مَا سَبَقَ «لا يَمِيلُهُ أَهْلُ الْحِجَازِ»¹⁶⁴، ويؤكِدُ تلك النَّظرَةَ بعد أن أورد صوراً أخرى بقوله: «وَجَمِيعُ هَذَا لَا يَمِيلُهُ نَاسٌ كَثِيرٌ مِنْ بَنِي قَمِيمٍ وَغَيْرِهِمْ ... وَهِيَ لُغَةُ لَبْعَضِ أَهْلِ الْحِجَازِ، فَأَمَّا الْعَامَةُ فَلَا يَمِيلُونَ»¹⁶⁵.

ويذكر سيبويه بعض نَهَادِجِ الإِمَالَةِ التي تؤكِدُ أَنَّهُ كان ينطلق في تحليله من الأداء المنطوق المشافه الذي سمعه. يقول: «بلغنا عن ابن أبي إِسْحَاقَ أَنَّهُ سمع كثِيرَ عَزَّةَ يَقُولُ: صَارَ¹⁶⁶ بِمَكَانِ كَذَا وَكَذَا، وَقَرَأَ بَعْضَهُمْ (خَافَ)»¹⁶⁷.

والباب الذي يلي هذا الباب جعله سيبويه بعنوان «هذا باب من إِمَالَةِ الأَلْفِ»، يمِيلُها فيَهُ نَاسٌ مِنَ الْعَرَبِ كَثِيرٌ»¹⁶⁸، كما عقد باباً آخر بعنوان: «هذا باب ما أَمِيلُ عَلَى غَيْرِ قِيَاسٍ، وَإِنَّهُ هُوَ شَاذٌ»¹⁶⁹. وبعد أَنْ أَورَدَ كُلَّ تِلْكَ الأَبْوَابِ في الإِمَالَةِ يَعْلُقُ بِقَوْلِهِ: «سَمِعْنَا جَمِيعَ مَا ذَكَرْنَا لَكَ مِنْ إِمَالَةِ وَالنَّصْبِ فِي هَذِهِ الْأَبْوَابِ مِنَ الْعَرَبِ»¹⁷⁰، وَهَذَا التَّصْرِيحُ مِنْ سيبويه يَؤكِدُ قِيمَةَ السَّمَاعِ الْمُبَاشِرِ عَنِ الْعَرَبِ، كَمَا يَؤكِدُ أَنَّ المَشَافِهَةَ كَانَتْ هِيَ الْأَسَاسُ فِي التَّحْلِيلِ النَّحْوِيِّ.

162 - الكتاب: ج 4 ص 117.

163 - انظر: السابق، نفس الجزء والصفحة.

164 - السابق: ج 4 ص 118.

165 - السابق: ج 4 ص 120 (بتصرُف بالحذف). وانظر: ج 3 ص 278.

166 - أبي إِمَالَةِ أَلْفِ «صَارَ».

167 - الكتاب: ج 4 ص 121.

168 - السابق: ج 4 ص 123.

169 - السابق: ج 4 ص 127.

170 - السابق: ج 4 ص 143.

هـ- الحال المشاهدة المصاحبة للأداء الصوتي المشافه:

اهتم سيبويه اهتماماً كبيراً ببيان الحال المشاهدة المصاحبة للأداء الصوتي المشافه، وهو إذ يهتم ببيان ذلك فهو يؤكّد أهمية الانطلاق من المنطق المشافه لا المكتوب؛ حيث إن الحال المشاهدة من أهم الظواهر التي تصاحب الأداء الصوتي المشافه، ولا يمكن إغفال دور «الحال المشاهدة» أو «السياق غير اللغوي» أو «المقام»¹⁷¹ في التحليل النحوی.

وقد جاء حديث سيبويه عن الحال المشاهدة مبئوثاً في معظم الأبواب التحويية، كما أنه أَوْلَى الإشارات الجسمية اهتماماً كبيراً في عملية التواصل والتخليل، ويظهر ذلك فيما يأْتِي:

- تحت عنوان «هذا باب مُتَصَرَّف (رويد)»¹⁷² يتحدث سيبويه عن لفّي الكاف بكلمة (رويد) فيقول: «فلحاق الكاف كقولك: يا فلان، للرجل حتى يقبل عليك، وتركها كقولك للرجل: أنت تفعل، إذا كان مقبلاً عليك بوجهه منصتاً لك، فتركت: يا فلان، حين قلت: أنت تفعل، استغناه بإقباله عليك. وقد تقول أيضاً: رويدك، من لا يُخاف أن يلتبس بسواه، توكيداً، كما تقول للمقبل عليك المنصت لك: أنت تفعل ذاك يا فلان، توكيداً»¹⁷³.

فسيبويه يبيّن كل عناصر الحال المشاهدة، ويحكم على التركيب من خلالها، بل إنه يجعل مراعاة الحال المشاهدة فيصلاً في قبول تركيب ورفض آخر؛ فالتركيب (يا فلان) مقبول إن كنت تنادي على شخص حتى يقبل عليك بوجهه وينصت لك، أما إذا كان مقبلاً عليك فعلاً، فالالأصل ألا تقول له: يا فلان، بل

171 - لمزيد من التفصيل عن السياق وأثره في التحليل النحوی انظر: دلالة السياق: د. ردة الله بن ردة الطلحى، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، و«نظرية السياق بين القدماء والمحدين»: دراسة لغوية نحوية دلالية: د. عبد النعيم خليل.

172 - الكتاب: ج 1 ص 243

173 - السابق: ج 1 ص 244

لابد من تركيب آخر هو: أنت تفعل، وليس ثمَّ ما يمنع هذا التركيب أو ذاك إلا مراعاة الحال أو المقام الملابس للأداء المنطوق المشافه.

- «هذا باب ما يُضمر فيه الفعل المستعمل إظهاره في غير الأمر والنهي»¹⁷⁴، وفي هذا الباب يبين سيبويه أثر الحال المشاهدة في حذف الفعل في غير الأمر والنهي، يقول: «وذلك قوله، إذا رأيت رجلاً متوجهاً وجهة الحاج، فاصلًا في هيئة الحاج، فقلت: مكة وربُّ الكعبة. حيث زَكِنْتَ أنه ي يريد مكة، كأنك قلت: ي يريد مكة والله. ويحوز أن تقول: مكة والله، على قوله: أراد مكة والله، كأنك أخبرت بهذه الصفة عنه أنه كان فيها أمس، فقلت: مكة والله، أي: أراد مكة إذ ذاك»¹⁷⁵، فرؤيه الرجل في هيئة الحاج أو متوجهاً إلى مكة ألغت عن ذكر الفعل.

ويوضح سيبويه بمثال آخر، يقول: «أو رأيت رجلاً يسد سهماً قبَل القرطاس، فقلت: القرطاس والله، أي: يصيب القرطاس، وإذا سمعت وقع السهم في القرطاس قلت: القرطاس والله، أي: أصاب القرطاس، ولو رأيت ناسًا ينظرون الهلال وأنت منهم بعيد فكَبَرُوا لقلت: الهلال ورب الكعبة، أي: أبصروا الهلال»¹⁷⁶، من الواضح أن سيبويه يخلل تركيب حية منطقية؛ لذلك اهتم ببيان الحال المصاحبة للأداء الصوقي، وأوضح دورها في عملية التحليل، وكان حريصًا على ذكر أدق التفاصيل؛ لأنه بدون بيان تلك الحال المشاهدة ربما يكون التركيب غير مقبول أو غير مستساغ.

- «باب ما يتتصب لأنَّه خبر للمعروف المبني على ما هو قبله من الأسماء المبهمة»¹⁷⁷، يقول سيبويه: «وذلك أن رجلاً من إخوانك ومعرفتك لو أراد أن

174 - السابق: ج 1 ص 257.

175 - السابق: نفس الجزء والصفحة.

176 - السابق: نفس الجزء والصفحة.

177 - السابق: ج 2 ص 77.

يخبرك عن نفسه أو عن غيره بأمر فقال: أنا عبد الله منطلقًا، وهو زيد منطلقًا، كان محلاً لأنها أراد أن يخبرك بالانطلاق، ولم يقل «هو» ولا «أنا» حتى استغنيت أنت عن التسمية، لأن «هو» و«أنا» علامتان للمضمير وإنما يُضمر إذا علم أنك قد عرفت من يعني، إلا أن رجلاً لو كان خلف حائط، أو في موضع تجاهله فيه فقلت: من أنت؟ فقال: أنا عبد الله منطلقًا في حاجتك، كان حسناً¹⁷⁸، فانظر كيف تحول التركيب من «محلاً» إلى «حسن» عن طريق الحال المشاهدة المصاحبة للأداء الصوتي، مما يؤكّد أهمية تلك الحال المشاهدة في عملية التحليل النحوي.

- «هذا باب يكون المبتدأ فيه مضمراً، ويكون المبني عليه مظهراً»¹⁷⁹. يقول سيبويه: «وذلك أنك رأيت صورة شخصٍ فصار آية لك على معرفة الشخص، فقلت عبد الله وربِّي، لأنك قلت: ذاك عبد الله، أو هذا عبد الله. أو سمعت صوتاً فعرفت صاحب الصوت، فصار آية لك على معرفته، فقلت: زيد وربِّي، أو مَسِسْتَ جسداً، أو شممت ريحًا فقلت: زيد، أو: المِسْكُ، أو ذقت طعاماً فقلت: العسل»¹⁸⁰، فانظر هنا كيف اهتم سيبويه ببيان كل عناصر الحال المشاهدة من رؤية وسمع وشم وذوق، وهي العناصر المصاحبة للأداء المشافه المنطوق، وبدون وضع تلك العناصر في الاعتبار فلن يكون التركيب مقبولاً أو مفهوماً.

هذه أمثلة قليلة تبيّن مدى اهتمام سيبويه بالحال المشاهدة التي تصاحب الأداء المنطوق المشافه، وكيف أن الاعتداد بتلك الحال أمر مهم في التحليل النحوي؛ فقد تُغْنِي عن ذكر عنصر، وقد تجعل التركيب مقبولاً مستساغاً بعد أن كان قبيحاً مرفوضاً، وقد تُزيل الغموض واللبس، وتجعل التركيب أكثر وضوحاً.

178 - السابق: ج 2 ص 80، 81.

179 - السابق: ج 2 ص 130.

180 - السابق: ج 2 ص 130.

2- الأبواب النحوية:

تعد الأبواب النحوية المختلفة عصب الكتاب ومادته الكبرى، ومن يتأمل تحليلات سيبويه لتلك الأبواب المختلفة يدرك بسهولة أن الرجل ينطلق في التحليل من الجانب المنطق المشافه. صحيح أن سيبويه قد يلتفت إلى الصورة المكتوبة أحياناً، غير أن ذلك لا يعد منهجاً له، ولا يمثل كثرة وغلبة في تحليلاته. وسوف أقدم فيما يأتي نماذج من تحليل سيبويه لبعض الأبواب النحوية، التي تؤكد انطلاقه من التركيب الحي المشافه:

- «هذا باب من الاستفهام، يكون الاسم فيه رفعاً، لأنك تبتدئه لتنبه المخاطب، ثم تستفهم بعد ذلك. وذلك قوله: زيدٌ، كم مرة رأيته؟ وعبد الله، هل لقيته؟»¹⁸¹. واضح من عنوان الباب أن سيبويه يحلل تركيباً مشافهاً منطوقاً؛ إذ لا بد من زيادة النبر على المبتدأ حتى يتحقق التنبيه للمخاطب، ولا بد من سكتة خفيفة، ثم يأتي السؤال بعد أن يكون المخاطب قد انتبه، وهذا التحليل لا يمكن بحال أن يظهر في الكتابة، بل يتجلّي في الأداء الصوتي المشافه، وقد أكد سيبويه أن الاستفهام لا بد أن يأتي بعد سكتة خفيفة بقوله: «لأنك إنما تحيء بالاستفهام بعد ما تفرغ من الابتداء»¹⁸²، فهناك إذن سكتة خفيفة بعد أن تذكر المبتدأ.

- «باب الأمر والنهي»¹⁸³. يقول سيبويه: «وقد يكون في الأمر والنهي أن يُبني الفعل على الاسم، وذلك قوله: عبد الله اضربه، ابتدأت عبد الله فرفعته بالابتداء، ونبّهت المخاطب له لِتُعرَّفَه باسمه، ثم بنيت الفعل عليه، كما فعلت ذلك في الخبر»¹⁸⁴. وهذا الباب شبيه بالباب السابق، غير أن التركيب هنا إنشاء.

181 - الكتاب: ج 1 ص 127.

182 - السابق: ج 1 ص 128.

183 - السابق: ج 1 ص 137.

184 - السابق: ج 1 ص 138.

- ومن الأبواب التي اهتم فيها سيبويه ببيان الجانب النطقي باب «البدل» الذي توزع الحديث عنه في أكثر من باب، فتحت عنوان «هذا باب من الفعل يستعمل في الاسم، ثم يبدل مكان ذلك الاسم اسم آخر فيعمل فيه كما عمل في الأول»¹⁸⁵، يقول سيبويه: «وذلك قوله: رأيت قومك أكثرهم، ورأيتبني زيداً ثلثيهم ... فهذا يجيء على وجهين: على أنه أراد: رأيت أكثر قومك ... ولكنه ثُلثيهم ... ويكون على الوجه الآخر الذي أذكره لك، وهو أن يتكلم فيقول: رأيت قومك، ثم يبدو له أن يبين ما الذي رأى منهم، فيقول: ثلثيهم أو ناساً منهم»¹⁸⁶، فكان المتكلم سكت سكتة خفيفة قبل ذكر البدل، وقد أشار الأعلم الشتيري إلى شيء من ذلك بقوله: «فهذا لم يكن في أول كلامه قاصداً إلى ذكر البدل، ثم بدا له ذلك بعد أن مضى صدر كلامه على الوجه الذي لفظ به»¹⁸⁷، وهذا يؤكّد وجود تلك السكتة الخفيفة.

ولا يتضح حديث سيبويه عن البدل المبain (الإضراب - الغلط - النسيان) إلا من خلال أداء منطوق مشافه، يقول سيبويه: « وإنما يجوز: رأيت زيداً أباه، ورأيت زيداً عمراً، أن يكون أراد أن يقول: رأيت عمراً، أو: رأيت أباً زيداً، فغَلَطَ أو نسي، ثم استدرك كلامه بعده، وإما أن يكون أضرب عن ذلك، فنحّاه وجعل عمراً مكانه»¹⁸⁸، وتلك التفرقة بين بدل الإضراب، وبدل الغلط، وبدل النسيان، لا يمكن بحال أن تظهر في الكتابة؛ إذ إن الصورة المكتوبة واحدة في الأنواع الثلاثة، لكن الذي يميز نوعاً من آخر هو الأداء الصوتي المشافه؛ ذلك أن بدل الإضراب يكون المتكلم فيه قاصداً إلى المبدل منه، لكنه بعد ذلك يعرض عنه إلى ذكر البدل بعد أن غير وجهة نظره، أو بدا له ما يمنع قصد المبدل منه، أما

185 - السابق: ج 1 ص 150.

186 - السابق: ج 1 ص 150، 151 (بتصرف بالحذف).

187 - النكت في تفسير كتاب سيبويه: ج 1 ص 274.

188 - الكتاب: ج 1 ص 151، 152.

بدل الغلط فيبدو عليه الأداء الصوتي السريع؛ لأن المتكلم منذ البداية كان يقصد البدل، غير أن لسانه أخطأ، فتدارك بسرعة، أما بدل النسيان فإن المتكلم فيه يتوجه إلى البدل، غير أنه نسي ذكر المبدل منه، فلما تذكر ذكر البدل¹⁸⁹.

ويلفت الانتباه في حديث سيبويه عن البدل أنه جعل الأداء المشافه فيصلاً في قبول التركيب أو رفضه؛ فالتركيب «رأيت زيداً أباه» بصورته الكتابية تلك مرفوض. يقول سيبويه: «ولا يجوز أن تقول: رأيت زيداً أباه، والأب غير زيد، لأنك لا تبينه بغيره ولا بشيء ليس منه»¹⁹⁰، لكن سيبويه نفسه عاد كما رأينا وأجاز مثل ذلك التركيب بشرط نطقه بأداء صوتي خاص يخرجه عن البدل المطابق إلى بدل الغلط أو النسيان أو الإضراب، وليس هناك من فارق بين الصورتين إلا الأداء المشافه وطريقة النطق.

وعند حديث سيبويه عن بدل المعرفة من النكرة يتضح أنه يحلل تركيباً منطوقاً، يقول: «أما بدل المعرفة من النكرة فقولك: مررت برجل عبد الله، كأنه قيل له: بمن مررت؟ أو ظن أنه يقال له ذاك، فأبدل مكانه ما هو أعرف منه»¹⁹¹، كأن سيبويه يشير بذلك إلى سكتة خفيفة تفسيرية بعد المبدل منه؛ لأن السؤال أو الظن يقتضي تلك السكتة اللطيفة، ثم يأتي البدل موضحاً ومفسراً.

وينطبق الأمر السابق ذاته على بدل المعرفة من المعرفة، يقول سيبويه: «وأما المعرفة التي تكون بدلاً من المعرفة فهو كقولك: مررت بعد الله زيد، إما غلطت فتداركت، وإما بدا لك أن تضرب عن مرورك بالأول وتجعله للآخر»¹⁹².

- وفي باب المنادي يجعل سيبويه من الأداء الصوتي المشافه فيصلاً في تحديد نوع المنادي، ويبدو ذلك في تحليله لبيت الطِّرْمَاح:

189 - انظر: شرح التصریح على التوضیح: خالد الأزهري، ج 2 ص 159.

190 - الكتاب: ج 1 ص 151.

191 - السابق: ج 2 ص 14.

192 - السابق: ج 2 ص 16.

يا دار، أقوت بعد أصرامها ٭ عاماً وما يعنيك من عامها¹⁹³

يقول سيبويه: «إإنما ترك التنوين فيه؛ لأنّه لم يجعل «أقوت» من صفة الدار، ولكنّه قال: يا دار، ثم أقبل بعد يُحدّث عن شأنها، فكانه لما قال: يا دار، أقبل على إنسان فقال: أقوت وتغيّرت، وكأنّه لما ناداهما قال: إنّها أقوت يا فلان، وإنّما أردت بهذا أن تعلم أن (أقوت) ليس بصفة»¹⁹⁴.

فسيبويه يحلّل تركيباً منطوقاً حيّاً بكل ملابساته، فالشاعر نطق منادياً الدار في البداية، ثم بعد ذلك استأنف بجملة جديدة موجهاً حديثه إلى شخص أمّاه؛ لذلك صارت جملة «أقوت» استئنافية وليس صفة، ومن ثمّ تغيير الحكم النحوّي، فلم تنصب «دار»، بل بنيت على الضم؛ لأنّها صارت نكرة مقصودة، ولا شك أنّ الصورة المكتوبة لا تجدي شيئاً مع هذا التحليل، إنّها هو الأداء الصوقي الذي تكون فيه السكتة الخفيفة بعد «دار» ثم الاستئناف بجملة «أقوت» - دليلاً على كون «دار» نكرة مقصودة.

وقد علق الأعلم الشنتمري على كلام سيبويه السابق بقوله: «استشهاداً على أنه أراد «داراً» بعينها، وقوله: «أقوت» إخبار عنها وليس بوصف لها، كأنّه نادى الدار، ثم أقبل على إنسان فقال: أقوت وتغيّرت، ولو جعله وصفاً لها لكان نكرة منصوبية»¹⁹⁵، مما يؤكّد وجود السكتة بعد المنادي.

ويبيّن سيبويه استخدامات حروف النداء: يا، أيّا، هيّا، أي، الهمزة، في ضوء سياق مشافه مشاهد. يقول: «... إلا أن الأربعة غير الألف قد

193 - أصرام جمع صرم، وهو الفرقة من الناس ليسوا بالكثير، ينكر الشاعر على نفسه أن يتشارغل بالدار لتغييرها، إذ لا يجدي ذلك شيئاً. انظر: تعليق الأستاذ عبد السلام هارون، هامش (1)، ج 2 ص 201.

194 - الكتاب: ج 2 ص 201.

195 - النكّت في تفسير كتاب سيبويه: ج 1 ص 476. وانظر: كتاب سيبويه ج 2 ص 201، حيث يقدم سيبويه التحليل ذاته لبيت الأحوص:

يا دار، حسرّها البلى تحسّيراً ٭ وسافتْ عليها الريح بعدهك مُورا

يستعملونها إذا أرادوا أن يمددوا أصواتهم للشيء المترافق عنهم، والإنسان المعرض عنهم الذي يرون أنه لا يقبل عليهم إلا بالاجتهاد، أو النائم المستيقظ»¹⁹⁶، فحروف النداء: يا، أيا، هيا، أي، تستخدم عند الحاجة إلى رفع الصوت ومدّه، بسبب بُعد المنادي أو تغافله، وهذا التحليل يؤكّد أن سيبويه ينطلق من تركيب منطوق مشافه له ملابسات خاصة، ولا يظهر ذلك في الكتابة؛ حيث يتساوى القريب والبعيد، والمُقبل والمُعرض.

والمنادي حين يصير «مندوباً» يحتاج إلى أداء صوتي مختلف عن المنادي العادي، يقول سيبويه: «اعلم أن المنصب مدعى، ولكنه متوجّع عليه، فإن شئت ألحقت في آخر الاسم ألف؛ لأن النسبة كأنهم يتزمنون فيها»¹⁹⁷، ولا يمكن بيان هذا «التزمن» إلا من خلال الأداء الصوتي المشافه الذي يحتاج فيه المتكلّم إلى مد الصوت لإظهار التفجع والحسنة على المنصب.

- وفي باب «لا» النافية للجنس، يجعل سيبويه الأداء الصوتي المشافه فيصلاً في تحديد ماهية اسم «لا»، يقول: «وقال الخليل - رحمه الله - كذلك: لا أمراً بالمعروف لك، إذا جعلت (بالمعروف) من تمام الاسم، وجعلته متصلًا به، كأنك قلت: لا أمراً معروفاً لك. وإن قلت: لا أمر بمعرفة، فكأنك جئت (بالمعروف) بعدما بنيت على الأول كلاماً»¹⁹⁸، ويفهم من كلام سيبويه السابق أن اسم «لا» في نحو: لا أمراً بالمعروف لك، ينبغي أن يقرأ موصولاً بما بعده دون سكت لأنّه جزء متمم له؛ ولذلك أُعرب فنصب، في حين أن الاسم في نحو: لا أمر بمعرفة، يفضل أن تكون بعده سكتة؛ لأن ما بعده ليس من تمامه؛ ولذلك بُني الاسم في هذا التركيب. ويؤكّد السيرافي في تعليقه على كلام سيبويه وجود هذه السكتة بقوله: «إإن الباء ليست في صلة (أمر)، كأنك قلت: لا أمر،

196 - الكتاب: ج 2 ص 229، 230.

197 - السابق: ج 2 ص 220.

198 - السابق: ج 2 ص 287.

وَسَكَتْ، وَأَضْمَرْتْ خَبْرَهُ ثُمَّ جَئَتْ بِالْبَاءِ لِلتَّبَيِّنِ، كَأَنْكَ قَلْتَ: أَعْنِي بِمَعْرُوفٍ، كَمَا تَقُولُ: سَقِيًّا، ثُمَّ تَحْيِيءَ بِ(لَكَ) عَلَى (أَعْنِي)¹⁹⁹.

- ويظهر أثر الماشفةه واضحًا جليًّا عند حديث سيبويه عن إعراب الفعل المضارع، حيث يكون الأداء الصوقي المنطوق موجًّهاً للصور الإعرابية المختلفة للفعل المضارع، ففي أسلوب الشرط قد يقع المضارع بين الشرط والجواب، فيجزم أحياناً، ويرفع أحياناً، ولكلّ أداء صوقي مختلف. يقول سيبويه تحت عنوان «هذا باب ما يرتفع بين الجزمين وينجزم بينهما»²⁰⁰: «إِنْ تَأْتِنِي تَسْأَلْنِي أَعْطُكَ، وَإِنْ تَأْتِنِي تَمْشِي أَمْشِ مَعَكَ؛ وَذَلِكَ لَأَنَّكَ أَرْدَتَ أَنْ تَقُولَ: إِنْ تَأْتِنِي سَائِلًا يَكُنْ ذَلِكَ، وَإِنْ تَأْتِنِي مَاشِيًّا فَعَلْتَ»²⁰¹.

ويمكن فهم كلام سيبويه في ضوء أداء صوقي يتصل فيه فعل الشرط بالفعل بعده، وتكون النغمة صاعدة، بحيث تصبح «إن تأتني تسألني» كتلة واحدة في النطق، ويكون في ذلك دلالة على كون الفعل المعترض حالاً فيرفع.

ثم يشير سيبويه إلى صورة أخرى يكون فيها الفعل المعترض بين الشرط والجواب مجزوماً، وهنا سيختلف الأداء الصوقي، حيث تكون هناك سكتة خفيفة بعد فعل الشرط، مع زيادة النبر على الفعل المعترض. يقول سيبويه: «وَسَأَلَتِ الْخَلِيلُ عَنْ قَوْلِهِ:

متى تأتنا تُلِمْ بنا في ديارنا * تجد حطباً جَزْلاً وَنَاراً تَأْجَجاً²⁰²

199 - السابق: ج 2 ص 287، هامش رقم (3)، وكالعادة نقل الأعلم الشتمري نفس كلام السيرافي دون الإشارة إلى إليه. انظر: النكت للأعلم الشتمري، ج 1 ص 601.

200 - الكتاب: ج 3 ص 85.

201 - السابق: نفس الجزء والصفحة.

202 - الجزل: الغليظ، تأججاً: أي الحطب والنار. من تعليقات الأستاذ عبد السلام هارون بالهامش ج 3 ص 86.

قال: "تللم" بدل من الفعل الأول، ونظيره في الأسماء مررت برجل عبد الله، فأراد أن يفسر الإتيان بالإسلام، كما فسر الاسم الأول بالاسم الآخر²⁰³، فالأداء الصوقي هنا يكون مع تلك السكنة الخفيفة الموحية بالتفسير بعدها، بحيث إذا احتفت تلك السكنة ونطق فعل الشرط متصلًا بها بعده، فإنه يجوز رفع الفعل "تللم" على أنه حال²⁰⁴.

ويزيد سيبويه الأمر وضوحاً مبيّنا قيمة الأداء الصوقي المشافه بقوله: «وسأله: هل يكون: إن تأتنا تسألنا نعطيك؟ فقال: هذا يجوز على غير أن يكون مثل الأول، لأن الأول الفعل الآخر تفسير له، وهو هو، والسؤال لا يكون الإتيان، ولكنه يجوز على الغلط والنسيان، ثم يتدارك كلامه، ونظير ذلك في الأسماء: مررت برجل حمار، كأنه نسي ثم تدارك كلامه»²⁰⁵. فالتركيب «إن تأتنا تسألنا نعطيك»، بجزم «تسألنا» لا يصح إلا إذا كان «تسألني» بدل غلط أو نسيان، وهذا لا يظهر إلا من خلال المشافهة.

وقريب من هذا الحديث كلام سيبويه عن المضارع المجزوم في جواب الطلب، حيث عقد باباً بعنوان: «هذا باب من الجزاء ينجزم فيه الفعل إذا كان جواباً لأمر أو نهي أو استفهام أو تمنٍ أو عَرْضٍ»²⁰⁶، يقول سيبويه: «وتقول: لا تدن منه يكن خيراً لك. فإن قلت: لا تدن من الأسد يأكلك، فهو قبيح إن جزمت، وليس وجه كلام الناس؛ لأنك لا ت يريد أن تجعل تباعده من الأسد سبباً لأكله، فإن رفعت فالكلام حسن، كأنك قلت: لا تدن منه فإنه يأكلك»²⁰⁷، ووفق كلام سيبويه فمن الأفضل وجود سكتة خفيفة قبل الفعل «يأكلك» مع

203 - الكتاب: ج 3 ص 86.

204 - وقد أشار إلى ذلك الأستاذ عبد السلام هارون في تعليقاته بالماهش، انظر: ج 3 ص 86، هامش (4).

205 - السابق: ج 3 ص 87.

206 - السابق: ج 3 ص 93.

207 - السابق: ج 3 ص 97.

زيادة الضغط عليه، ليكون بمنزلة التنبية والتحذير، أما في نحو: لا تدن منه يكن خيراً لك، فال فعل «يُكن» ليس فيه ذلك الضغط الزائد، كما أن نغمته ستكون نغمة هابطة لأنه هو الجواب.

- وعند حديث سيبويه عن كسر همزة «إن» وفتحها، نراه يعتمد الأداء النطقي المشافه ملماً مميزاً في التفريق بين الكسر والفتح. يقول سيبويه: «وسائله [أي: الخليل] عن قوله عز وجل: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ إِنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: 109]²⁰⁸ ما منها أن تكون كقولك: ما يُدرِيكَ أَنَّهُ لَا يَفْعَلُ؟ فقال: لَا يَحْسَنُ ذَاهِنًا فِي ذَاهِنٍ إِنَّمَا يَقُولُ: وَمَا يُشْعِرُكُمْ، ثُمَّ ابْتَدَأَ فَأَوْجَبَ فَقَالَ: إِنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ»²⁰⁹، فالأدلة النطقي المشافه مع قراءة الكسر يتطلب سكتة بعد قوله تعالى: «وَمَا يُشْعِرُكُمْ» ثم الاستئناف بما بعدها، ويصير المعنى أن الله - عز وجل - يخبر أئمَّهم لَا يؤمنون. أما مع قراءة الفتح وبقاء «أن» على دلالتها فلا سكتة بعد «يُشْعِرُكُم» وسوف يتغير المعنى ليصبح: «وَمَا يُدْرِيكُمْ عَدَمَ إِيمَانِهِمْ، وَهَذَا جَوَابٌ لِمَنْ حَكَمَ عَلَيْهِمْ بِالْكُفَّارِ أَبْدًا، أَوْ يَئِسَّ مِنْ إِيمَانِهِمْ»²¹⁰، ويصبح هذا كالعذر لهم، يقول سيبويه: «وَلَوْ قَالَ: وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ، كَانَ ذَلِكَ عَذْرًا لَهُمْ»²¹¹، ويدرك سيبويه رأي الخليل في جواز أن تكون «أن» بمعنى «لعل» يقول: «وَأَهْلُ الْمَدِينَةِ يَقُولُونَ «أَنَّهَا»، فَقَالَ: هِيَ بِمَنْزِلَةِ قَوْلِ

208 - الآية بالفتح في المصحف في رواية حفص عن عاصم، أما الكسر فقد قرأ به كل من: ابن كثير، وأبي عمرو، وعاصم، والعليمي، والأعمش، وأبي بكر، وخلف، ويعقوب، وابن محصن، واليزيدي، والحسن، ومجاهد. انظر: معجم القراءات: ج 2 ص 308. ويدرك ابن مجاهد أن هناك اختلافاً في كيفية النطق بالكسير أو الفتح بالنسبة إلى عاصم. يقول ابن مجاهد: «وَقَرَأَ نَافِعٌ وَعَاصِمٌ فِي رَوْاْيَةِ حَفْصٍ، وَهِمَّةٌ وَالْكَسَائِيُّ، وَاحْسَبَ ابْنَ عَامِرَ: (أَنَّهَا) بِالْفَتْحِ. وَأَمَّا أَبُو بَكْرٍ بْنُ عَيَّاشٍ فَقَالَ يَحْبِي عَنْهُ أَنَّهُ لَمْ يَحْفَظْ عَنْ عَاصِمٍ كَيْفَ قَرَأَ كَسِّرًا أَمْ فَتْحًا». كتاب السبعية في القراءات: ص 265.

209 - الكتاب: ج 3 ص 123.

210 - إملاء ما من به الرحمن: العكبري، ص 264. وقد ذكر العكبري ثلاثة أوجه لقراءة الفتح. وانظر: النكث في تفسير كتاب سيبويه: ج 2 ص 766.

211 - الكتاب: ج 3 ص 123.

العرب: أئت السوق أنك تشتري لنا شيئاً، أي: لعلك، فكأنه قال: لعلها إذا جاءت لا يؤمنون»²¹².

- وتحت عنوان «هذا باب (أم) منقطعة»²¹³ يبدو تأثير المشافهة واضحاً في تحليل سيبويه لصور التركيب المختلفة، يقول سيبويه «ويدلك على أن هذا الآخر منقطع من الأول، قول الرجل: إنها لإبل، ثم يقول: أم شاء يا قوم. فكما جاءت «أم» ههنا بعد الخبر منقطعة، كذلك تجيء بعد الاستفهام، وذلك أنه حين قال: أعمرو عندك، فقد ظن أنه عنده، ثم أدركه مثل ذلك الظن في «زيد» بعد أن استغنى كلامه، وكذلك: إنها لأبل أم شاء، إنما أدركه الشك حيث مضى كلامه على اليقين»²¹⁴. في هذا النص يحمل سيبويه جملة: إنها لإبل أم شاء، معتمداً على الأداء المنطوق المشافه، فالمتكلم بدأ كلامه متيقناً أنها «إبل» ثم أدركه الشك بعد ذلك، فهناك سكتة ثم الاستئناف، ولعل هذا هو المفهوم من كلام سيبويه «إنما أدركه الشك حيث مضى كلامه على اليقين»، ونفس الأمر في الاستفهام، فالمتكلم قال: أعمرو عندك ثم سكت واستأنف بعد ذلك بقوله: أم زيد، وهذا هو ما يمكن فهمه من كلام سيبويه «فقد ظن أنه عنده، ثم أدركه مثل ذلك الظن في زيد بعد أن استغنى كلامه»، فالواضح إذن أن جملة «أم المنقطعة» يكون لها أداء صوتي خاص، يتحقق بالسكتة قبل «أم» ثم الاستئناف بها بعدها.

ويتصل بذلك حديث سيبويه عن «أو» تحت عنوان «هذا باب (أو)»²¹⁵، حيث يمثل سيبويه بنحو: هل عندك شعر أو بُرّ أو تُرّ؟، و: هل تأتينا أو تحدثنا؟

212 - السابق: نفس الجزء والصفحة: وقدقرأ أبي «لعلها إذا جاءتهم» انظر: معجم القراءات: ج2، ص309. وانظر: الكتاب، ج3 ص143، حيث ذكر سيبويه أمثلة أخرى وميز بين الفتح والكسر منطلاقاً من الأداء الصوتي المشافه.

213 - الكتاب: ج3 ص172.

214 - السابق: نفس الجزء والصفحة.

215 - السابق: ج3 ص175.

ثم يقول: «وإن شئت قلت: هل تأتيني أم تحدثني؟ وهل عندك بر أم شعير؟ على كلامين ...، وعلى هذا قالوا هل تأتينا أم هل تحدثنا؟ قال زفر بن الحارث²¹⁶:

أبا مالكِ هل لُتني مُذْحَضْتَنِي * على القتلِ، أمْ هَلْ لَامِنِي لَكَ لَائُمْ

وكذلك سمعناه من العرب. فأما الذين قالوا: أم هَلْ لَامِنِي لَكَ لَائُمْ، فإنما قالوه على أنه أدركه الظن بعدما مضى صدر حديثه، وأما الذين قالوا: أو هَلْ، فإنهما جعلوه كلاماً واحداً²¹⁷.

وكلام سيبويه هنا يؤكّد أنه يحلل تراكيب منطقية مشافهة، فقولنا: هل عندك شعير أو بر؟ يُنطق متصلًا بلا أي سكتة قبل «أو»، في حين أننا لو قلنا: هل عندك شعير أم بر؟ فإنه ينبغي أن تكون هناك سكتة قبل «أم» ثم الاستئناف، وقد عَبَرَ سيبويه عن الحالة النطقية الأولى بقوله: "جعلوه كلامًا واحدًا"، في حين أننا في الحالة الثانية أمام «كلامين»، وانظر إلى وصف سيبويه الدقيق «أدركه الظن بعدما مضى صدر حديثه»، فهو وصف لأداء مشافه حيّ، لا شبهة لتأثير الرسم فيه.

أكتفي بهذه الأمثلة من تخليلات سيبويه للأبواب النحوية والظواهر اللغوية، وغيرها كثير، وهي تثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن سيبويه إنما كان يحلل تراكيب حية مشافهة؛ لذلك جاءت تخليلاته انعكاسًا واضحًا لما في الأداء النطقي المشافه من ظواهر ومؤثرات، ولم يكن للرسم أو الكتابة أثر يذكر في توجيهه التراكيب وتخليلها، ولعل في ذلك ما ينفي تلك التهمة التي حاول بعض المحدّثين إلصاقها بالنحاة العرب، وهي أنهم تأثروا في تعديدهم بالمكتوب، ونظن أنه لم يعد لذلك الاتهام محلّ.

216 - الصحيح أن البيت للشاعر جحا بن حكيم السلمي، انظر: هامش (4)، ج 3 ص 176، تعليلات الأستاذ عبد السلام هارون.

217 - الكتاب: ج 3 ص 177، 176.

المصادر والمراجع

- أبحاث في اللغة: د. داود عبده، مكتبة لبنان، بيروت، 1973.
- أخبار النحويين البصريين: أبو سعيد الحسن بن عبد الله السيرافي (ت368هـ)، تحقيق وشرح: د. محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، ط1، 1424هـ-2004.
- الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع: القاضي عياض بن موسى اليحصبي (544-479هـ)، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار التراث، القاهرة، المكتبة العتيقة، تونس، ط2، بدون تاريخ.
- إملاء ما من به الرحمن من وجوه الإعراب في جميع القرآن: أبو البقاء عبد الله بن الحسين العكيري (ت616هـ)، دار الفكر، بيروت، ط1، 1406هـ-1986م.
- بحوث ومقالات في اللغة: د. رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي بالقاهرة، دار الرفاعي بالرياض، ط1، 1403هـ-1982م.
- البلغة في ترجم أئمة النحو واللغة: مجد الدين الفيروزابادي (729هـ-817هـ)، حققه: محمد المصري، مركز المخطوطات والتراجم، الكويت، ط1، 1407-1987.
- البناءعروضي للقصيدة العربية: د. محمد حماسة عبد اللطيف، دار الشروق، القاهرة، ط1، 1420هـ-1999م.
- البيان في روائع القرآن: د. تمام حسان، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 2002م.
- تاريخ العلماء النحويين من البصريين والковيين وغيرهم: القاضي أبو المحاسن المفضل بن محمد بن مسْعَر التنوخي المَعْرِّي (ت442هـ)، تحقيق: د. عبد الفتاح محمد الحلو، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 1401هـ-1991.

- التصريف العربي من خلال علم الأصوات الحديث: د. الطيب البكوش، نشر مؤسسات عبد الكرييم عبد الله، تونس، ط2، 1987م.
- التطور اللغوي مظاهره وعلمه وقوانينه: د. رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 1410هـ-1990م.
- التنوعات اللغوية: د. عبد القادر عبد الجليل، سلسلة الدراسات اللغوية⁴، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 1417هـ-1997م.
- الدراسات الصوتية عند علماء التجويد: د. غانم قدوري الحمد، مطبعة الخلود، بغداد، 1406هـ-1986م.
- دراسات في علم أصوات العربية: د. داود عبده، مؤسسة الصباح، الكويت، بدون تاريخ.
- دراسات في علم اللغة: د. كمال بشر، دار المعرفة، ط2، 1971م.
- دراسات لسانية تطبيقية: د. مازن الوعر، دار طлас للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ط1، 1989.
- دراسات وتعليقات في اللغة: د. رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 1414هـ-1994.
- دلالة السياق: د. ردة الله بن ردة الطلحى، منشورات جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط1، 1424هـ.
- دور الكلمة في اللغة: ستيفن أولمان، ترجمه وقدم له وعلق عليه: د. كمال محمد بشر، 1962.
- سيبويه إمام النحاة: علي النجدي ناصف، عالم الكتب، القاهرة، ط2، 1979.

- شرح المفصل: ابن يعيش، مكتبة المتنبي، القاهرة.
- الشعراء وإنشاد الشعر: علي الجندي، دار المعارف، مصر، 1387هـ . 1967م.
- الشفاهية والكتابية: والترج. أونج، ترجمة: د. حسن البنا عز الدين، مراجعة د. محمد عصفور، سلسلة كتب عالم المعرفة، العدد 182، (1414-1994م).
- طبقات النحوين واللغويين: أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي الأندلسي (ت 379هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية، بدون تاريخ.
- ظاهرة التخفيف في النحو العربي: د. أحمد عفيفي، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، الطبعة الأولى، 1996.
- العربية: دراسات في اللغة واللهجات والأساليب: يوهان فاك، ترجمة: د. رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1400هـ-1980م.
- عروض الورقة: أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق محمد العلمي، دار الثقافة، المغرب، ط 1، 1404هـ-1984.
- علم الأصوات: برتيل مالبرج، تعريب ودراسة: د. عبد الصبور شاهين، مكتبة الشباب، 1984.
- علم الأصوات اللغوية: د. مناف مهدي محمد الموسوي، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، 1419هـ-1998.
- فصول في فقه العربية: د. رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثالثة، 1408هـ، 1987م.
- فقه اللغات السامية: كارل بروكلمان، ترجمه عن الألمانية: د. رمضان عبد التواب، مطبوعات جامعة الرياض، السعودية، 1397هـ-1977.

- فقه اللغة في الكتب العربية: د.عبد الرحمن الراجحي، دار النهضة العربية، بيروت، 1979 م.
- القواعد النحوية، مادتها وطريقتها: عبد الحميد حسن، مطبعة العلوم، القاهرة، 1946.
- الكافي في العروض والقوافي: الخطيب التبريزي (ت 502 هـ)، تحقيق الحسّاني عبد الله، مكتبة الخانجي، القاهرة، بدون تاريخ.
- الكتاب: أبو بشر عمرو الملقب (سيبويه)، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 3، 1408 هـ - 1988.
- الكتاب: أبو بشر عمرو الملقب (سيبويه)، وبهامشه تقريرات السيرافي، وشرح الشواهد المسمى: "تحصيل عين الذهب من معدن جوهر الأدب في علم مجازات العرب"، للأعلم الشتمري، المطبعة الكبرى الأميرية ببولا克 مصر المحمية، ط 1، 1316 هـ.
- اللغة: فندريس، تعريب عبد الحميد الدوالي و محمد القصاص، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1950 م.
- اللغة الانفعالية بين المنطق والمكتوب: د. عطية سليمان أحمد، دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع، (ضمن سلسلة في علم اللغة النفسي)، القاهرة، 2001 م.
- اللغة العربية معناها ومبناها: د. تمام حسان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، الطبعة الثالثة، 1985 م.
- اللغة المكتوبة واللغة المنطقية بحث في النظرية: د. محمد العبد، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، 1990 م.
- لغة الشعر، دراسة في الضرورة الشعرية: د. محمد حماسة عبد اللطيف، دار الشرق، القاهرة، الطبعة الأولى، 1416 هـ - 1996.

- مراتب النحوين: أبو الطيب اللغوي(ت 351هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار نهضة مصر للطبع والنشر، الفجالة، القاهرة، بدون تاريخ.
- المعجزة الكبرى: القرآن: محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، 1970.
- معجم الأدباء: ياقوت الحموي، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1408هـ-1988.
- معجم القراءات القرآنية مع مقدمة في القراءات وأشهر القراء: د.أحمد مختار عمر، د.عبد العال سالم مكرم، انتشارات أسوة(التابعة لمنظمة الأوقاف والشؤون الخيرية، إيران) الطبعة الأولى، 1413هـ، 1992م.
- مفاتيح الغيب: فخر الدين الرازي(544-606هـ)، دار الغد العربي، القاهرة، ط1، 1412هـ-1992م.
- مقدمة ابن الصلاح ومحاسن الاصطلاح: تقي الدين عثمان بن الصلاح(577-643هـ)، تحقيق: د.عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، دار المعارف، القاهرة، 1989.
- المنهج الصوتي للبنية العربية: رؤية جديدة في الصرف العربي: د.عبد الصبور شاهين، مكتبة دار العلوم، القاهرة، ط1، 1397هـ-1977.
- النحو العربي والدرس الحديث، بحث في المنهج: د.عبد الرحيم، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، بدون تاريخ.
- النحو الوافي: عباس حسن، دار المعارف، مصر، الطبعة الثامنة، بدون تاريخ.
- النحو والدلالة، مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي: د.محمد حماسة عبد اللطيف القاهرة، الطبعة الأولى، 1403هـ، 1983م.

- النشر في القراءات العشر: ابن الجوزي (ت 833هـ)، أشرف على تصحيحه: علي محمد الضباع (شيخ عموم المقارئ بالديار المصرية)، دار الكتب العلمية، بيروت.

- النكت في تفسير كتاب سيبويه: الأعلم الشتمري، تحقيق: د. زهير عبد المحسن سلطان، منشورات معهد المخطوطات العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، الكويت، الطبعة الأولى، 1407-1987.

- هندسة المقاطع الصوتية وموسيقى الشعر العربي: د. عبد القادر عبد الجليل، سلسلة الدراسات اللغوية⁷، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، الطبعة الأولى، 1419هـ، 1998م.